# سَـــاكِـــنَةٌ بِـــك

**قصة أقدم مغنيات العصر الحديث**

**سَاكِنَة بِك**

**رواية**

**رامي يحيى**



32 ش صبري أبو علم، القاهرة

تليفون / فاكس: 5797710 (202)

www.darmerit.org

darmerit98@gmail.com

الغلاف للفنان: ؟؟؟؟

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ؟؟؟؟/**2020**

الترقيم الدولي: **978-977-351-???-?**

رامي يحيى

# سَاكِنَة بِك

**قصة أقدم مغنيات العصر الحديث**

رواية

دار ميريت
القاهرة 2020

# إهـداء

هذه ألف وثمانمائة وواحد وخمسون سنة وستة أشهر وثمانية عشر يوماً ميلادية تأتي على سكان مصر، وقد اصطبغ لون الأشياء فيها بصبغة الحداثة التي حملها - قبل ذلك التاريخ بنحو خمسين عاماً - محمد علي، والي مصر المعروف، وإنها وإن تكن صبغة - لا تزال - طفيفة الأثر، فقد اكتست بها كل معالم القاهرة كأنما لتجهد أن تلتحق بعصر حال بينها وبينه قرون غفلة.

وذلك وجه المدينة الكالح في مشهد الغسق، قد انسلخ عن غروب ضارب إلى الحمرة بعدما تألق حيناً في وهج قرمزي كان يلف الأحياء والجمادات جميعاً بحلة تليدة من عهد الماضي.

وتلك هي ساكنة، أقدم مغنيات العصر الحديث وأشهرهن أثراً، وحكايتها المعروفة المشحونة قد خلبت ألباباً وخلعت ألباباً، ولست إلا راوياً يجهد أن ينقل الأثر نقلاً أميناً حصيفاً. وما عسى الرجل في دنياه إلا أن يحاول؟

## 1

لم يكن يوماً يحتفظ التاريخ بذكرى وقائعه جلية ظاهرة، وإنما كان من تلك الأيام المنتمية إلى عهد غابر بعيد تبدو حوادثه هائمة غائمة كمثل خيالات النفس وأضغاث الأحلام، وقد زاد من غموضه أن ليلاً داجياً قد رسم على صفحة سمائه لوناً أسود ممزوجاً بالبنفسج، مثلما ضاعف من طلاوته أن نسائم عابرة قد عبقت مسالكه الخاملة بأريج لطيف. وبين ليل داج وبين نسائم عابرة كان ثمة خيال باهت ينسل في هداوة، مختالاً، يبدو من أثره الممدود على الأرض منتسباً إلى امرأة، ومن تكوينه المثلث مشيراً إلى ملاءة تلفها، ومن حركته الوئيدة منطوياً على حذر ضامر خفي.

وفيما تلج المرأة من العتمة، وكانت قاصرة الطرف باسمة الثغر يتفق للناظر إليها أن يحسبها لم تعرف كسوف البال أبداً، أقول، وفيما هي كذلك وجدت نفراً من الطغام يتحلقون ناراً فيستدفئون بحطبها ويرقصون حولها طروبين، وهنالك أخذتها رجفة وارتعشت أوصالها كأنما أحست لتوها برودة الطقس حولها. ومضت تشق سبيلها بينهم إذ هي لا تملك من أمرها خياراً آخراً، وكانت المشاكسة هاجسها الأوحد تطل بثقلها في مخيالها مع كل خطوة تخطوها، وبينما الحال هذه، لمح محياها منهم واحد فإذا هو قائل:

- ساكنة! المغاني، من رجال، ومن نساء، دونك فضلاً أجمعين، من لم يستمع لصوتك شادياً في أكشاك الأزبكية فاته ما لا يعوض أبداً، فإذا مررت بنا فقد حل بنا خير كثير.

ولم تجبه إذ جللها الحياء من أن ترد على غريب، ومضت والخجل يغلبها فإذا هي صامتة. وقال آخر:

- لابد أنها انقلبت خرساء بعد سنين طوعت فيها لسانها على إنشاد اللغو!

وضحك كثير من القاعدين، وغشتها سحائب الكدر، تقول:

- المشاكسون في مدينتنا بلية وحدهم.

وتمضي في سبيلها، الموسوم بالضيق وكثرة التعاريج، وذلك الحال في أكثر شوراع القاهرة، ولا يزال خيالها يسبق خطاها المتريثة، وهي أسيرة لما انطبع في وجدانها من آثار مشاكسة ضاقت بها، تتجاذبها الخواطر بلا هوادة: "العوام لا يشغلهم إلا ظاهر الأمور، الدهماء لا سيرة لهم إلا التندر،المغاني والعوالم والباغيات ليسوا شيئاً واحداً، لا ليسوا كذلك وما ينبغي لهم! ولكن.. كيف للجاهل أن يميز والضامنة تحصل الضريبة منهم جميعاً بلا تفرقة؟ ثم أنى للمحقق أن يمحص الخبيث من الطيب و قد انتسبوا كلهم زوراً إلى عين الطائفة؟ وحتى الواعظاتوالقارئات والندابات صار يشملهن، مع البقية المناقضة لهن، قانون واحد! أعجب بنظام تأسس في غفلة من منطق، خلو من أيما ضابط !".

ولا تزال تلج من ظلمات غاشية فتتبادر عليها صور المباني من حولها كالأشباح المتوالية، وتتخايل لها الزوايا والأسبلة

والسقايات والأحواض أجناساً من العجائب المتوارية. لا جرم أنها قاصدة إلى واحد من ميادين أربعة: ميدان قراميدان، أو ميدان الرميلة، أو ميدان بركة الفيل، أو ميدان بركة الأزبكية، إنها تريد أن تتنسم هواءً في الخلاء بعد أن أطبقت عليها الهواجس، فتعود صفواً من الأكدار. وحتى إذا لمحها العابر في سيرها عرفها فهو محييها باسمها، وحتى إذا فعل انطفأت جمرة غضبها فهي حانية الرأس هذه المرة شاكرة، تقول هامسة:"لا حاجة بي إلى ارتياد الميادين وخياري ملازمة البيت اتقاءً للبرودة والظلام.". وصارت من باب بيتها قاب قوسين، فسمعت صوتاً يأتيها في الظلام:

- ها قد تمكنت من نفوس الناس بغنائك ثم بأدبك!

ونكست طرفها، وبدا أنها تعرفت إلى المتكلم، وكانت الضامنة نعيمة، فقالت آسفة:

- ليس كل الناس يا سيدتي !

وتنهدت ضامنة المغاني فاختلط صوت زفيرها بصفير الرياح، وقالت خفيضة الصوت:

- وهل اجتمع الناس منذ كان آدم على حقيقة؟ لا أزال أذكر ما سمعته من روايات نقلت إلي عن كيف كان يحمل الناس، وملوكهم، علينا، نحن طائفة المغاني، وأرباب الآلات، حملة واحدة في كل مرة ينتشر فيها الوباء، أو تعم الفاقة، أو يسود القحط، في البلاد، دونما ذنب اقترفناه، فإذا كان موسم لم يبلغ فيه النيل الزيادة نقموا علينا نزوعنا إلى اللهو، كأن بين الأمرين صلة! وإذا شحت الغلال في الأسواق وعدم الفول والشعير بالمدائن نسبوا إلينا أسباب البلية، وحتى إذا انجلت المأساة

وانقشعت الغمة عادت الأمور إلى سيرتها الأولى، فدقت الطبول وعلا دوي المزامير وارتفع الغناء في أنحاء المحروسة كأن شيئاً لم يكن! فإذا مس القوم سوء تحصنوا بقلاع للفضيلة من رمال، وانتابهم خشوع زائف، وصبوا جام غضبهم على من لا يملك ضراً ولا نفعاً.

واستشرفت ساكنة شيئاً مما قد يجره عليها حديث عابر من مهالك النفي، وغياهب الأسر، وضياع مقيم، وقد صار من المستساغ أن ينفى كل مغضوب عليه إلى أقاصي السودان، مثلما لم يعد شيئاً أكثر ذيوعاً بالمدينة من عيون الجاسوسية كأنهم حبات الرمل المنثور، ثم أنى لها هي أن تطمئن إلى الضامنة وقد صار المرء لا يأمن من غدر الأقربين إليه؟ فلعلها إذن تنصب لها فخاً، ودار ذلك وغيره في خلدها فنصحت للضامنة بدخول البيت، وقالت مبررة:

- لئلا يلتقط مخلوق من حديثنا طرفاً، وما أسهل الوشاية!

ودلفت نعيمة من الباب وهي تبسمل، فسارت في إثرها ساكنة، وكان البيت من داخله خلواً من المتاع الزائد، ليس فيه إلا اللازم لقضاء الحوائج الرئيسة، فقالت نعيمة دهشة:

- لا تزالين زاهدة في متاع فانٍ، وكان حقاً أن يدفعك الصيت والمال إلى اغتراف نهم من مناهل الترف، وقد عاشرت كثيرات مثلك ممن جادت عليهن الأقدار بعد عوز، ولعلي كنت سبباً فيما طرأ عليهن من النعم، بعدما كنت سبباً إلى تدريبهن وتثقيفهن، ثم إلى تعريف البكوات والأعيان والوالي بهن، فإذا هن بعد النعمة خلقاً آخراً وشيئاً آخراً.. أما أنت فلا!

وغلبها الخجل، فأخفت بحركتها ما اعتورها من اضطراب ناجم عن الإشادة، وكانت حاملة في يسراها شمعة موقدة فجعلت تدانى إلى موقع نعيمة وهي جلوس على وسادة، وقالت:
- وأفندينا عباس حلمي؟ كيف هو؟
وأجابت نعيمة بعد أن التفتت إلى النافذة الموصدة :
- آه! لست أدري أي حكمة يرتئيها الزمن من وصول القساة الغلاظ إلى سدد الحكم؟ فإذا كان لا تفوق لهم في ساحات الوغى أو ميادين الإدارة فهو العبث! والحق أن كل الذي يصلني عن مولاي أو منه يصح أن ينسب إلى الغرابة وسوء الطبع، من ذلك مثلاً يوم زعم نفر من الكذابين ما ليس لي من مال جبيته من برآء الناس، قسراً وجبراً، حتى إذا بلغ النبأ الكذوب مسامعه اقتادني إلى الحبس دون تحقيق، وعرضني للضرب غير مرة، وقرر عليَّ خمسمائة من الجنيهات! فانظري لهاتيك الجراح بعد أن انتبرت في جسدي وتورمت، انظري لها يا ساكنة لتعلمي كيف هو شقاء المرأة المستقيمة في دنيا الإفك والافتراء.
ونظرت إلى مواطن الاحمرار حتى اقشعر بدنها، فقالت كالمنكمشة:
- أليس له من ميزة تجعله أهلاً لشغل منصبه؟ أنت تعلمين غاية العلم كيف تستقبل الأراجيف كل والٍ جديد فلا تدعه حتى يتخلى عن الولاية،.. ألم يسمع بي مثلاً؟
واستكانت نعيمة حيناً لجلستها المنعمة، وغطت جراحها بثيابها، وقالت:
- إن أحداً بالمحروسة ليس تخفى عليه سيرتك، وقد كان صوتك الفتان رسولك إلى كل أذن، والمشكل ليس في أن يعرفك

أفندينا، ولكن في أن الرجل إذا تصرف فإنما هو يصدر عما جبل عليه من غليظ السجايا، وإذا قرر فهو مقرر على غير هدى ولا بصيرة، فإذا هو رفعك إلى المقام الأرفع وضمنك إلى بطانته لم تأمني جانبه بحال، وإذا دعاك إلى إحياء حفل أو مناسبة فليست تؤول الدعوة إلا إلى المجهول من النهايات. وكم أخشى عليك مغبة العواقب !

وانقبضت ساكنة فوارى التوجس ما طبعت عليه من استبشار، وقالت:

- أراك تتحدثين عن مخبول بليد لا عن حاكم محصته التجارب!

وقالت نعيمة :

- أحسبه ليس من ذلك ببعيد، وشأنه في ذلك ليس غريباً محدثاً، وإني أسألك: كيف بالمرء بعد أن ارتقى إلى مقام الولاية، خائضاً في مخاضها العسير، ناجياً من امتحانها الصعب، محاطاً بحملة المباخر، مؤذراً بما لا يحصى من المشيعين، إلا أن يمسه مس من الخبل؟ كيف بالمرء - لولا عاصم يعصمه - إذا دانت له كل أسباب البأس إلا أن يغتر؟ وبقى أن أذكرك بحقيقة بدهية حققتها التجارب فليس الملوك كلهم من الطينة عينها، وإنما يتفاوت بريقهم تفاوتاً كبيراً كمثل الأنجم على صفحة السماء، وقد يفصل بين الأخ وبين أخيه، أو بين الوالد وبين نجله، أشواط من الحصافة والوعي، فلا تنتظري أن يأتي من هو في دهاء محمد علي، أو في جسارة ابنه إبراهيم.

وبدا أن ساكنة قد شغلت بما تسمع ساهمة، وقالت:

- وكيف حال العباد وهم تحت كنف ما تنسبين إلى الرجل من الاضطراب؟

وقالت نعيمة كالتي تقر بالحقيقة مرغمة:
- الناس، كما تعلمين، على دين ملوكهم، وقد عني مولاي باستتاب الأمن، وضرب على أيدي الأشقياء، فاجتث جذورهم، واستأصل شأفتهم، وتلك واحدة من مناقبه النادرة، ولكن باستشراء الجاسوسية خلص الناس إلى حقيقة أن الخوف مصيرهم المحتوم، كأنما قضى المقدور بأن يعيشوا مروعين، في الحالين.
وكانت ساكنة ترهف السمع، فقالت:
- والغواني؟ لعله قد ترامي إليَّ نبأ استئناف عملهن هنا بعدما تقرر إعادتهن إلى القاهرة والإسكندرية، وقد كان قضي على أثرهن منذ أقصين إلى أطراف الصعيد في إسنا وأسوان على عهد ولاية محمد علي.
وقالت الضامنة حائرة:
- كل هذا حق! وذلك مما يضاف إلى ما يظهر من سلوك مولاي من التناقض، فلم يكد يدعي لنفسه التقوى والورع، فيحيي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويأوي إلى عزلة مقيمة بسراي الخرنفش أو الحلمية متعبداً، ثم يعتزل بين جدران قصوره في جوف صحراء الريدانية مصلياً، ويخلع على نفسه لقب الحاج، حتى يعاد بعد ذلك كله انفتاح بيوت البغاء بأمر منه، كأنما هو يعمد إلى العبثية عمداً.
ونظرت ساكنة لنعيمة نظرة عامرة بالتحدي، وقالت:
- من عجب أن كل الذي سمعته منك عن الرجل لم يزدني إلا شوقاً إلى لقائه والتعرف عليه.
وقالت نعيمة:

- أحسبه يشاركك الشوق نفسه، ولعلي أدبر لكما موعداً عما قريب.
وساد الصمت في حضرة الليل البهيم، وسمع هفيف الرياح بعدما خلت الحجرة من حديث مشحون، وتخايل لعيني ساكنة أن الضامنة قد غفت، حتى قالت:
- أي بنيتي: لعلك لا تزالين عاكفة عن الزواج عكوفاً لم أعهد مثله، فإذا كنت أنا رئيسة المغاني فذلك الذي هيأ لي أن أرى كيف يخبو الجمال سريعاً بكرور السنوات، وكيف تنزوي أبهة الأنوثة في زاوية من زوايا الزمان العجول، وكم من رجل، موسع، يسره أن يتزوج بك ومعاً تكتسيان حلة العيش النضير! وإنها ليلة ناعسة تضاء فيها المشاعل والفوانيس، وينعم فيها القاصي والداني بالمسرة، وتلك حركة الزفة تبدأ من الغورية مارة بالجامع الأزهر وتنتهي بباب زويلة، يشارك فيها الوالي والمغاني والأطفال.
وتململت الأخرى فأشاحت وجهها دون أن تنبس، وكان عصياً عليها أن تسمع ما سمعت بغير أن تنطوي ضلوعها على حفيظة، وقالت في تسليم:
- الأمر كله بيد الله!

2

وكان ليلاً طويلاً تأخرت شمسه عن البزوغ، ونشطت فيه الألسنة إلى التحدث دون ملل أو كَلال، ذلك حتى استعجلت الضامنة مجيء الطعام، وكان عدساً وبصلاً وخبزاً، وعلى ذلك نهضت ساكنة تجهزه وهي تنشد بصوت حسن*:

ناءٍ عن الأهل خال الجوف منقبض كمعدم مات من جوع ومن قشل

فلا خليل بدفع الجوع يرحمني ولا كريم بلحم الضأن يسمح لي

طال التلهف للمطعوم واشتعلت حُشاشتي بحَمام البيت حين قلي

أريد أكلا نفيسا أستعين به على العبادات والمطلوب من عملي

والدهر يفجع قلبي من مطاعمه بالعدس والكشك والبيسار والبصل

وشاركتها نعيمة إنشادها المرح بصوتها الشائخ من موقعها متوسدة الوسادة، وطغى صوت ساكنة عليه وهي ترسله إرسالاً دون عناء فيبلغ صداه الرائح والغادي، وكانت الأخيرة متطلقة الوجه كثيرة البسمات شأنها حين تغني. ثم كان أن دق الباب فانقطع دابر الهرج، وغشى الأجواء وقار طارئ، وسكنت الأنفس المترنمة، فحينذاك، تساءلت ساكنة عمن هنالك، فأجاب الطارق رخيم الصوت:

- الشيخ عبد السلام..

وانفتح المصراع ثم لاح منه شيخ معمم، يطفح وجهه بأمارات الغضب، وقال وهو يتفحص محيط الحجرة بعينيه النافذتين:

- تلك إذن هي الديار التي تعربدين فيها لياليك بعد أن أعلنت العصيان، أليس كذلك؟
وألفت ساكنة نفسها في حرج بالغ، وحذقت نعيمة شيئاً يدعوها إلى الانصراف، فقالت كالتي تناجي نفسها وهي تهم بحركة مستنهضة:
- ها قد أظلمت الدنيا، وكم أخشى على نفسي من قطاع الطرق! فالواجب إذن أن أنصرف.
وظلت ساكنة لحظات تشيعها شاردة الفؤاد مأخوذة النفس، ثم التفتت إلى الشيخ بعدما خلا المكان إلا منهما وانفجرت باكية:
- يا أبتِ: إن الشريفات من النساء لا يزري بهن الغناء ولا التطريب، فإذا هن حافظات لفروجهن فماذا يضرهن القيل والقال بعد ذلك؟
وقال الشيخ في حزم:
- يضرهن أن يعصين الله فيصرن مطمعاً لمن في قلبه مرض، ألم تسمعي يوماً عن الحرام؟ وإن جهلت به فلن أترخص في أن أسوق لك من الكتاب والسنة ما يثنيك عن ذلك البطلان الظاهر الذي توغلين فيه دون أدنى دراية ولا علم.
ودلف الشيخ من الباب بغير إذن، وهنالك خلع عمامته لاعتقاده في مجافاة المكان للآداب التي تتوافق مع التعمم، وقالت ساكنة وهي تلحظ ذلك منه:
- لعلك أعلم الناس، وأنت ابن الأزهر، بالخلاف الفقهي المعروف حيال تحريم الغناء أو إباحته، ثم لعلك أعلمهم أيضاً، من موقع الأبوة، بالخلق الذي فطرت عليه ابنتك، فلماذا، بعد

هذا وذاك، ألقى منك كل هذا الاضطهاد، فواعجباً، كأن قلبك كالحجارة بل أشد؟!
واتخذ عبد السلام الوسادة - التي كانت تتوسدها الضامنة - مضجعاً له، وفك حزامه لما اطمأن إلى مجلسه فكشف عن بطن هائلة مضغوطة، وقال:
- الخلاف الفقهي المعروف هو خلاف بين أهل الحق وبين أهل الباطل، وذلك من الشائع في كل زمن، فذلك قول أعز القائلين: "ومن الناس من يشتري لغو الحديث ليضل به عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً."، وقول رسوله الكريم:"ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف."، فماذا بعد هذين الدليلين الدامغين إلا نفوس تماري مراءً أجوفاً وتهادن في غير ذي موضوع؟
ومال وجهها عن اعتداله، فرفعت حاجبها تقول:
- لعلك ما رأيت قط الحفاوة التي ألقاها حين أنشد الأغنيات بالأفراح والموالد، فتهتز لها قلوب جمة طرباً، فإذا كنت أغني كلاماً عامياً فكم من معاني النبل أوردها فيه! وأما الفصيح من إنشادي فهو الطهر والعفة والنزاهة!
وقال:
- تلك حفاوة استقبال الإثم ولا عجب! وأما العفة والنزاهة فهما قولك في الموشحات العامية: ملا الكاس وسقاني، وكذا الفصيح منها: هات كأس الراح واسقني الأقداح؟ وغير ذلك وغيره مما ابتدعه الأوائل فسار على إثره الأواخر.
وساد صمت مفعم بالانفعالات، حتى قطعه الشيخ:

- وأما الضامنة فتلك هي رسول الشيطان على الأرض، وإنها لتعنى بأن تهيئ البنات للإثم عناية خبيثة، فحاشا الله من أن تدخل إلى مكان إلا أن يحل فيه الرجس، وتنزل فيه الندامة، أما عرفتي أن اسمها نعيمة اللطيفة فصار يناديها به الناس بالنوادي والأسواق في ظرف وبغير حياء؟ وأما أنت فتخلعين عليها احتراماً يحدوك مرات إلى منادتها بسيدتي!

وسكتا حيناً، ثم استطرد عبد السلام:

- وأما أنت يا ساكنة فما أشبهك بنبت شياطني قد نما في تربة صالحة! ولعلك لم تلتقط من مناخ التدين الذي شببت فيه إلا أن تظهري الورع في بيئة الفساد، وكان حقاً عليك أن تخلصي لحفظ القرآن إخلاصك لاستذكار الموشحات، وأن تكوني ناسكة عابدة زاهدة لا دون ذلك أبداً.

وجاءت ساكنة أبيها بالعدس والبصل وقالت كالتي تساومه:

- أما عرفت أن الضامنة سوف تدبر لي موعداً يجمعني إلى الوالي عباس حلمي باشا عما قريب؟ ولعل غير ذلك من الخير يتأسس على ذلك اللقاء.

وقال الآخر فاتراً، وكان من دأبه أن يرد على السؤال بسؤال آخر:

- وأما علمت أنت أن الوالي نفسه يحضر دروس سيدي ومعلمي  إبراهيم الباجوري شيخ الأزهر ليتلقى منه ما يعينيه على الاجتهاد في أمور إدارة الدولة وتسييرها؟ فتلك هي كفة أهل الحق راجحة على الدوام، بفضل الله.

ولا تزال تستمع إليه حتى انقبضت علائم وجهها، وجحظت عيناها، وانكمش ما بينهما، وبدا أن السجال بينهما قد استحال منازلة ذات شجون، وقالت ساخطة:
- وما شأن إبراهيم الباجوري وشأننا؟ أليس بين الأب وبين ابنته رباط أوثق صلة وأمتن وشيجة مما هي بينه وبين الغرباء مهما كانت منازلهم؟ أليس يسعدك أن تسعد ابنتك ولو خالفت هواك؟
وقاطعها في استنكار:
- الإمام العلامة إبراهيم الباجوري ليس غريباً إلا في عيون المجترئات الجاهلات، والحق أقول لك إنه إلى نفسي أقرب منك إليها وإن باعدت بيننا الأنساب، وإن كتاباً واحداً خطه كمثل تحفة المريد على جوهرة التوحيد هو أصفى جوهراً وخير ثقالاً من كل الأغنيات التي ينشدها المغاني منذ كانت صنعتهم حتى قيام الساعة، وإذ كنت أنظر إليه نظرة التطلع والإكبار، فإني ناظر إليك نظرة الرثاء والأسف، وقد عزمت على أجيء بك إلى جلسة تكون في حضرته عسى أن يرقيك بيديه فتهتدي إلى سواء السبيل بعد أن ازوررت عن الحق ازوراراً مخيفاً، وأسأل المنان أن يقبل هو منشدي هذا فلم أعهد عنه أن اجتمع مع أصحاب الملاهي والطبول قط.
وقالت مستوحشة الفكرة :
- ليس الباجوري وحده الذي يرفض ويقبل! وإنما أنا مدبرة أمري مذ نأيت عن دياركم وحللت في ديار أملكها بغير شريك، وقد صارت لي صنعة تجيء لي بالمال وتجعلني في حل من معرفة الرجال.

وهنالك تملكه وحش الغضب الكاسر، فتحرك إلى حيث الباب وضربه بطرف بلغته حتى أغلقه، وقال:
- إذن لا محيص عن أن أؤدبك بنفسي يا بنت الكلاب!
وأمسك حزامه وقال متحفزاً:
- بسم الحي الذي لا يموت!
وكانت ساكنة تفر من ضرباته فراراً بارعاً، فتستغل فارق الوزن والعمر لصالحها، وتقول وهي تشهق وتزفر وتناور:
- لن يثنيني عن الغناء إلا الموت أو الخرص!
ذلك حتى نال الإنهاك من عبد السلام، فجلس خائر القوى ممدداً، فقالت ساكنة بعد أن أمنت جانبه:
- انظر إلى البنات والجواري في بلادنا ما أكثرهم! ثم انظر إلى المواهب الفائقة كالآلئ ما أندرها! فإذا اجتهدت في الغناء حتى فقت فيه، ورزقت حلاوة الصوت وطلاوته، فتلك هي نعمة مصطفاة وليست سبباً إلى التكدير أو التأنيب.
وقال الآخر نافذ الصبر :
- في طريقي إليك، وكان الغضب يملأ صفحة عقلي فيتخايل لي شبحه في عتمة موحشة، ألتقيت بالمغني أحمد الشلشموني فاستوقفته لأسأله عنك وأنتما، كما علمت، شريكان في ذات الحقل والمجال، وقد وصف لي الرجل على عماه كيف أن قوامك الرشيق هو ما حدا بالسوقة لأن يلتفوا حولك، لا الصوت، وقال: أكثر غنائها بالعامية وهو ركيك، لكنها مقبولة الوجه مكتملة التكوين، أتدرين يا ساكنة أي شنار شعرت به والرجل الأعمى يصف لي تفاصيل مظهرك؟
وقالت مستهترة:

- يا أبتِ: هذا شأن المفلسين! وقد فقت الشلشموني صيتاً وشهرة منذ أجل بعيد، فذلك الذي أثار كوامن غيرته وأشعل جذوتها، كما فقت عبد الرحيم المسلوب وسواهما ممن اعتقدوا أن لهم منزلة في النفوس لا تتزحزح بحال من الأحوال، فحز في أنفسهم أن تقارعهم النساء في ساحات الطرب، وتهوي بمنازلهم إلى الحضيض، فماذا عساهم بعد ذلك إلا أن يقطروا غلاً وحسداً؟

وتنهدت تنهيدة ذات مغزى، وأردفت:

- هلا أسمعتك بعض مما أحتمل في سبيله الأذى والعذاب ولأجله يغار مني الرجال؟

وقال متفكراً:

- لدي طلبان قبل أن يتأتى ذلك وبغيرهما لا يستقيم الأمر، أحدهما أن تقرأي من الذكر الحكيم سورة يس على مسمع مني، ذلك أن الأذن - إذا هي ألفت الحشمة والوقار - لا تميز جمال الصوت بحق إلا إذا نطق بقيم الكلام، والآخر أن تعديني بارتداء الحجاب متى فارقت الديار فلا يرى منك إلا العينان، وليعصمك من الناظرين ومن الحاسدين.

واتخذت لنفسها مجلساً إلى جواره، وقالت وصوتها المرتل يرن في جوف الليل:

- يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم..

ولما فرغت قال منبسطاً:

- والآن يحلو لك أن تغني كما تشائين!

وقالت والخوف يلعثم لسانها:

- ذلك مقتبس من أشعار سلطان العاشقين، وأشعر المتصوفين، ابن الفارض، ومثله نغني بالأفراح والموالد:

| | |
|---|---|
| زدني بفرط الحب فيك تحيراً | وارحم حشى بلظى هواك تسعرا |
| وإذا سألتك أن أرك حقيقة | فاسمح ولا تجعل جوابي: لن ترى |
| يا قلب أنت وعدتني في حبهم | صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا |
| إن الغرام هو الحياة فمت به | صباً فحقك أن تموت وتعذرا |

وتبسم لها الشيخ وكان شأنه أن يظهر الاستحسان بالابتسام، ووضع إبهامه في فمه عند الضرس الأيمن منتشياً، ثم انبسط أنفه انبساطاً عظيماً حتى أحمر، وقال:
- صوتك رائع في طبيعته، وهو مبهر على خشونته.

وهنالك غمرها النحيب طويلاً، ومن عجب أن قولته - بدلاً من أن تكون سبباً في ابتهاجها - قد فتحت بيبان الأسى فاستحضرت ألوان الشقاء من مكمنها، واستعادت المرأة أياماً نزحت فيها من الإسكندرية إلى القاهرة، وكيف ذاقت شظف العيش وهي لم تزل بعد قاصرة، ثم تذكرت ليالي تجرعت فيها غصص الحياة قبل أن تشتهر فقبلت الغناء بالأكشاك، ثم أسفت لحالها وهي نائية عن أهليها كشجرة بترت جذورها، فلم تعد تحل بأرض إلا وهي عنها غريبة، وقالت كالممتنة:
- لي أن أعتذر إليك إذا خرجت عن حيز المقام في مرة أو مرتين فنشزت، ذلك أنه قد طغى الحماس المشبوب عليَّ، فأخفق فؤادي وباعد بيني وبين صفاء أكون فيه خليقة بالغناء

الممتاز، ولعل مشهدك يا أبت مخيف فما أشبهه بقاضي يصدر حكماً بالإعدام أو الحياة على متهم !
وارتدى عبد السلام عمامته ثم انصرف، وكان ذلك إيذاناً بتبدل موقفه.

*مقتبس من قصيدة لعامر الأنبوطي، وهي محاكاة ساخرة لقصيدة لامية العجم الشهيرة للطغرائي الأصفهاني.

3

ولما استوت الشمس على الرؤوس وتوسط قرصها المذهب الأفق كانت ساكنة يقظى، ولعله احتيج من الزمان كثير لكي تستغرق في سباتها بعد أن ظفرت بمباركة الأب لها أخيراً، لقد أطار السرور عقلها، وكم عانت قبل ذلك لتلقى الاعتراف! ولعلها أحست مدداً وعوناً يأتيانها ذلك النهار بعد أن تحررت من ربقة الماضي وأغلال العمل في الخفاء وويلات الأذى والغبن، ووقفت المرأة أمام المرآة متأنقة متعطرة، وكان إنشادها في الحجرة عذباً كنسيم عابر تجود به قريحتها دون تكلف، وأضفت عليه تغاريد العصافير ما لا يقدر من الجمال، وهنالك دق الباب فحارت في معرفة الطارق، ولم يكن من دأبها استقبال الضيوف قبل الظهيرة، ومدت خطاها على عجلة من أمرها فكن العوالم الثمانيةاللاتي يعملن في كنفها في انتظارها، وقالت أحداهن - واسمها حليمة - تقصدها:

- تبارك الله أحسن الخالقين، قوامك يا ريسة رشيق كالغزال!

وشعر البقية بأن الصمت قد يفهم على غير ما يجب من حيث يشي بما قد يتحفظ عليه من شكلها، فتبارين في الثناء عليها حتى طلبت إليهن الهدوء، وقالت مرحة سريعة الخاطر:

- ماذا جاء بكن في تلك الساعة أيتها الشقيات؟

وتطوعت إحداهن بالجواب:

- جئنا لأجل التدريب، ولعلك تعرفين المنافسة التي ألفينا فيها أنفسنا بعد أن انتقلت، وانتقلنا معك، للسكنى في شارع محمد

علي، فغدا بعد مجيئك ربعاً يحتله الآلاتية وفرق الموسيقى ويقصدهم فيه الناس لإحياء الأفراح والليالي الملاح، فالواجب أن نكون في مستوى يؤمن لنا الرزق والكفاية.
وقالت أخرى :
- حسنية شخلع، وبدرية شخلع، وحتى اليهوديات الجميلات من مثيلات ليلى وقمر قد استوطن ها هنا، كما تعرفين، والبقية تأتي، ولكن شيئاً ليس يغلب معدن الصوت النقي، وجوهر الإنشاد الحقيقي، فالعاقبة لنا.
وقالت ثالثتهن:
- لا داع للقلق، لا مكان يدوم لأغاني الهئ والمئ في خاطر الذواقين من الشعب! هل يعقل أن توضع أغنيات الابتذال في ميزان يجمعها إلى قصائد ابن الفارض وأشعار الموشحات؟
وضحكت رابعة ضحكة مجلجلة وقالت :
- الذواقين من الشعب! أين هم؟ وأكثرهم منهكو النهار بالأشغال، ثم سكارى الليل في الحانات.
وقالت خامستهن متأملة:
- الكرد، والحسيني، وحتى النهاوند، لا يعنى بهم السامعون في قليل أو كثير، وإنما يعنون بالانبساط، فإذا لم يجدوه في الصوت، وشطارة الأداء، بحثوا عنه في الوجوه والشفاه.
وقالت سادستهن هازئة:
- وقد حرمنا الله الذي لا يحمد إلاه على مكروه من أية صلة إلى الجمال، فانظرن لوجوهكن الشائهة يا بنات!
وتبادلن النظرات ضاحكات حتى قالت سابعتهن:

- من شأن الخلائق في كل زمن أن يتصارعوا في سبيل اللقمة، وأن يحيكوا لبعضهم الحيل والأحابيل إذا تعلق الأمر بالجنيه.
وشغلت ساكنة بأحاديث ما تنفك تنبثق إليها حتى قالت :
- ليس ذلك مقام النجوى أو السمر، فادخلن إلى البيت نتجاذب فيه أطراف حدبث لاهٍ لا يطيب لكن غيره، ثم نتمرن على أداء حفل المساء المقرر إقامته بالغورية.
وفي البيت اقتعدت ساكنة كرسياً كبيراً، وحملت العود بين ذراعيها على جهلها بالعزف، وأسفل منها افترش العوالم الأرض فكن يتطلعن إلى امرأة تفوقهن عمراً وصوتاً ومالاً وصيتاً بكثير من الاعتبار والمثابة، وتوزعت الآلات، فسيدتان للطبلة، وسيدة للمزهر، ورابعة للعود، وخامسة للساجات، وسادسة للمزمار، وسابعة للرق، وثامنة للقانون، وأما الطنبور والنقارات فبقين على الأرض بغير صاحب، وأما الكمنجة والرباب فعدم المجلس من المجيدات لهما، وكانت أشعة النهار تنسل من النافذة متراقصة فأضفت على المجلس طابعاً بهياً، وعلى ساكنة في جلستها مسحة من النقاء والسحر، وقالت الأخيرة كالتي تبرأ ساحتها:
- ليس لي يد في وفود الآلاتية وفرق الموسيقى إلى شارع محمد علي، كما زعمت أحداكن، وفي الحق أن حضورهم إليه كان أسبق من مجيئي بعقود من الدهر، فمنذ وقعت مذبحة الأمراء المماليك، في العام الخامس من مطلع القرن الحالي، انكشف الساتر عما كان يجري من مجون داخل القصور، فخرجت الجواري إلى الطرقات مخافة الموت المحدق بهن - خرجن بخفي حنين، أكاد أبصرهن جيداً وإن باعدت بيننا السنون

والظروف: معدمات، شريدات، باحثات عن لقمة العيش، من غير أن يحملن شيئاً من الجوهر أو الزركش، بعد أيام الرفاه والنعيم والفخفخة، وبعد أن قلب لهن الدهر ظهر المجن، ولما لم يشفق عليهن من الناس أحد، اتجهن إلى الفن وإلى الغناء، ثم تجمعن وأقمن في شارع محمد علي.
وقالت إحدى العوالم مبهورة:
- سبحان الذي أودع في عقلك أخبار الأزمان الماضية يا ريسة!
وقالت أخرى:
- هكذا هي حرفتنا منذ الأزل، ليس لصاحبها أن يأمن جانب الأيام الغوادر، فكأنما هو منذ امتهنها على شفير هار.
وقالت ساكنة بعد أن أفاقت من وطأة الحكاية، تاركة القص والسرد:
- لسوف نغني من مقام الكرد، "يا بهجة الروح جد لي بالوصال"!
وهنالك أخذت العوالم يضبطن آلاتهن، فدوزنت الأوتار المرتخية، وتهيأت الأجسام والأيدي، وأنشدت ساكنة إنشاداً أطلق النفوس من عقال السأم:

يا بهجة الروح جد لي بالوصال    الفؤاد مجروح ولا له احتمال
إزَّاي تهجرني وأنا قلبي يهواك    بعدك جنني اسمح بالوصال
هات كأس الراح واسقني الأقداح    وجهك الوضاح ما له مثال

وكانت العوالم يجبنها في أوقات الجواب المقررة، مكررين ما تنشده على منوال قبيح، لا يخفي عواره إلا كثرتهن، وتداخل

أصواتهن التي هي بالصياح أشبه، فكانت هوة شاسعة وبوناً فسيحاً بين صوتها وبين ما عداه، وقالت إحدى العوالم :
- لئلا ينفضح أمرنا فعلينا بمزيد من التدريب.
وجاءت ساكنة للعوالم بالطعام فأغدقت عليهن إغداقاً وسيعاً، واصطفت الصحون بما احتوته من طيب اللحوم على الأرض كأنها وليمة، وقالت إحداهن وهي تمطق :
- الشيء من مأتاه لا يستغرب. إن للريسة فضل أن نأكل ونشرب ونتقلب في ظلال النعمة بعد أيام بتناها على الطوى!
وأحدقت إليها ساكنة منبسطة، ثم جالت بصرها في أرجاء الغرفة التي حوت على البقية من العوالم، ولم تكن تشاركهن الطعام إلا لماماً، وقالت:
- قلبي يرتعد من لقاء مولاي عباس حلمي باشا، فلا أجد غيركن أشاركنهن هواجسي، وقد كنت بادئ الأمر على شوق إلى لقائه ثم استحال الشوق وجلاً وتحسباً.
وقالت إحداهن وهي تتمثل الوالي:
- ماذا عساه أن يفعل إلا أن يشير إليك بإصبعه البدين ليقول بنبرته الصارمة الجوفاء بأن ساكنة تنفع، أو لا تنفع؟!
وقالت ساكنة وقد حارت نفسها بين شعورها بالتهيب من مقابلة تجمعها مع الوالي وبين ما سمعته من قول هازل:
- وقد أغلق هو الكاغدخانة المصرية (مصنع الورق) تطبيقاً لعين المبدأ، واستغنى عن المهندسين والعمال المشتغلين فيه، فلست أعز في نظره من قوم يدرون الأموال للدولة بعد شقاء وكدح، وذلك باعث آخر على الخوف.
وقالت عالمة كانت تقع على ميمنة منها، فحولت إليها رأسها:

- قد تجدين الوالي حازماً فيما يدبره من شؤون الدولة، متجهماً عبوساً إذا لقى الناس أو حل بأرضهم موكبه، فإذا رجع إلى فضاء اللهو والمجون بالحرملك وغيره، ألفي كأنه إمعة، من الهزل في نهاية، وفي التفريط أمثولة، فهو بعد أن يتجرد من عباءة التكلف متحرر أقصى التحرر من دواعي الأبهة والوقار.
وقالت :
- أخشى إذا لقيني أن يعجب بي فأقع في المحظور مضطرة، وللوالي كلمة لا ترد.
وقالت عالمة من موقعها عند طرف الحجرة:
- ذلك يوم المنى والسعد! وإن امرأة تأبى مصاهرة الوالي أو الانضمام إلى نساء الحرملك إنها لناقصة العقل فاقدة الرشد، وحاشاك من ذلك يا ريسة.
وقالت أخرى :
- ما يروى لنا من أَقَاصِيصُ الحرم السلطاني وما يدور فيه هو إلى العجائب أشبه، فذلكم الفراش الوثير، والستائر المتلألئة، ونسائم البخور المتموجة على أضواء الشموع الوانية، وصورة الترف الغارقة في أنهر من خمر، وفي عبير المسك تنشره الجواري الحسناوات البضات، والغلمان يحملون الشبكات المرصعة المقابض بالدرر والجوهر.
وواصلت ثالثة من حيث انتهت الأخيرة :
- والصحن المبلط بالرخام، وعقود اللؤلؤ الصغير، وكؤوس الشراب الشهي، وحبيبات العنب المرصوص، وثمار التفاح واليوسف أفندي. ثم ما لا يحصى من الحجرات والمطابخ

والمكتبات والحدائق، والعناية الفائقة بكل شاردة وواردة، والحماية المتناهية من الشواغل والمنغصات!
وقالت إحداهن في لهفة :
- انظري لهاذيك الباب المسحور بالقصر الكبير الذي يفضي إلى كل ذلك، كيف تسعى إلى عتبته النسوة هرولة، وكيف يطلق الرجال أعنة الخيال لسبر أغواره الخافية، فإذا قدر لك أن تملكي مفاتيحه فالتردد خطيئة.
وقالت إحداهن بعد أن فرغت من الأكل، أو كادت :
- ألم تسمعي قط، يا ريسة، عن طرفة بنت إبراهيم؟ تلك المرأة العربية التي تزوجها الوالي عباس باشا فوهب لها أراضي واسعة وأطيان كثيرة، وحتى لقد خصص لها أحد قصوره في الروضة! لقد التقطها من البادية التقاطاً أدعو الله أن يقدر لك مثله.
وقالت الأخيرة في حرج :
- إذا أبدى لك الوالي مودته فلا ترديه في إباء وشمم، فلا معنى للكبرياء أمام ذوي السلطان، وإذا أنت طاوعته مرة واحدة تكون لك جنة من النخيل والأعناب، وترتعين في موفور النعم.
وقالت ساكنة وقد بدت على وجنتيها حمرة خجل، زادتها نضرة:
- سامحكن الله أيتها اللاهيات! ولن أبدي له إلا احتراماً لازماً لمنصبه، وتوقيراً مناسباً لمقامه، وعدا ذلك من الأمر، إلى النقائص والدنيات ينتسب.
وقالت عالمة موجهة حديثها إلى البقية في تكلف:

- أصابت الريسة كبد الصواب! وإني أسألكن: ما معنى الحشمة في معجمكم؟ وإن الترفع لو تعلمن من طبائع الحرَّات.
وتهكمن منها البقية فانفجرن ضاحكات، وقالت إحداهن:
- ما أجدر أن يوجه حديثك هذا إلى امرأة (يقصدنها) ترى في كل رجل حاز البكوية فرصة للاقتناص!
وقالت الأولى لردء التهمة عن نفسها في مرح:
- إذا حازها من الدرجة الأولي أمر، وإذا حازها من الثانية شأن آخر.
وقالت ثالثتهن في جدية:
- لا تلمنها يا بنات، ثم إن الجاريات الأرمينيات أولى منها بالحسد، وأبرع منها ومنا في الغواية!
وقالت رابعتهن :
- صحيح! الملاحة للأرمن لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل، ثم إنهن، كما أعرف وتعرفن، قليلات حياء مكشوفات وجه، ولأجل ذلك كان لهن الانتشار المتنامي في بيوت أصحاب الشأن والبكوية في بلادنا.
وقالت خامستهن :
- ولكن يجري في دمائهن داء السرقة جريان الدماء في العروق، ولهذا يحتاط منهن الأكابر، و مع ذاك فهن منافسات لنا شرسات، والمحقق أن بقاءهن في بلادهن الآسيوية كان ليكفي الجميع أذاهن، ذلك أنهن إذا ما رآهن السوقة شغفن بهن وتطلعن إليهن في حسرة، وكذا إذا أبصرهن علياء القوم اشتد بهم الجوى وما يورثه من آثار حزن موصول، و كالعادة حين تجري: سعين لهن من طريق الحرام، وحتى إذا عاينهن أواسط

الناس حالاً انقلبوا - من بعد عهد رضاء وقنوع - زاهدين فيما لديهم ناقمين على أزواجهن، ونشط منهم الشعراء إلى كتابة القصائد التي تنضح بالبكائيات والأسى والقتامة، فكأنما خلقن فتنة للخلق أجمعين.
وقالت ساكنة مقاطعة :
- وإنما نطقتن بالفرى حسداً من عند أنفسكن، ومعرفتي بالجاريات الأرمينيات لا ينقصها العمق في الدراية، أو الإمعان في الاستبصار، والحق أقول لكم بأني عاشرتهن ميالات إلى الكرم، مستعدات للخدمة، وهن من بعد ذلك يحفظن لي مقاماً رفيعاً، فكم مرة تطارحنا فيها الحوار لما تحين الفواصل بالأفراح وغيرها فأجد منهن على الدوام لباقة لم أعهد مثلهما بينكن!
ورنت كلمة الأفراح في أسماع ساكنة - حين تلفظت بها - رنين جرس، فوعت ما جرته عليها مجاراة العوالم من استرسال قد ذهنها عن استعداد لازم لحفل المساء، فقالت :
- الواجب يقتضينا أن نستأنف التمرين، مودعين الهذر.

## 4

وحل المساء فأظلمت الدنيا إلا من النجوم، وغاب وجه القمر فطوته عن المشاهدة الغيوم، وجاء إلى البيت من دعا ساكنة لإحياء عرس ابنته، فقال وهو يطوع نبرته الرجولية الخشنة لغرض التودد :

- وأموال تطلبينها لقاء إحياء ليلتنا التي جرى عليها اتفاق، يا ريسة. كم زهاؤها؟

وقالت بعد مناوشة مع العوالم، وكان ديدنها ألا تجعل بينها وبين زبائنها وسيطاً يتولى عنها التفاوض، فتركن إلى شطارتها وحدسها:

- خمسون جنيهاً إسترلينياً أو ما يعادله بالجنيه.

وأشاح وجهه وقال :

- كثير! بل لعله فوق استطاعة أي من قطن حي الغورية من أمثالي - وهم كثر - منذ كان اسمه الشرابشيين وحتى يومنا أن يوفي ما يعادل ذلك وحده.

وقالت وهي تتفحص ملبسه الرث الذري بنظرة من رثاء :

- ولم لم تقصد غيري، يا أستاذ؟ ألم تر إلى سوق الآلاتية، حيث يجلس العاطلون من المطربين والراقصات في انتظار من يدعوهم لمثل دعوتك، طالبين الثمن البخس قانعين بما هو عدل بالنسبة لمواهبهم ولشهرتهم؟

وقال لا تكاد تكف نفسه عن التعلق بالأمل:

- من يمر من هذا المكان (سوق الآلاتية) لا تقضى له حاجة، كما تعلمين، فهو لغلبة الحرام فيه سبب إلى الانتكاس والتطير، وإنما قصدت إليك دون سواك، راضي النفس، ساكن السريرة، لأن بيتك بيت ورع وتقوى، وقد شهدت الشيخ عبد السلام دالفاً إليه مرة، وخارجاً منه مرات، ثم لقد كان عهدنا بك قبل الآن أن تلبي الدعوة متى دعاك إليها داع، من الموالد إلى الأعراس وأماسي الطهور وحتى مجالس الإنشاد، وأن تبدئي الغناء بالصلاة على النبي.
وشعرت ساكنة بأن الرجل يضعها من طريق الأدب في مأزق، فقالت:
- ليكن! وإنما أنا على الدوام في خدمة المعوزين. والأثرياء يمنحونني المال وحده، والفقراء يمنحونني الحب والاعتزاز إذا توفر لديهم مقابل، أو لم يتوفر!
وهنالك أخذ الرجل يدعو لها ممتناً، وقال:
- ولسوف تسعد ابنتي لحضورك فوق سعادتها بالزواج نفسه! ولعله لا يخفي عليك أن الحياة الحقيقة هي حياتنا: في ربوع الشقاء والفاقة، وبين الأوحال والأتربة، فلن تجدي من يطرب بحق لسماعك في القصور أو في نوادي الموسرين لأن أولئك يحسبون عاقبة كل شيء، حتى الانفعال وإبداء الإعجاب.
وسرعان ما حثت ساكنة خطاها إلى الغورية، فسرن في إثرها العوالم، يصفقن حيناً، ويغنين حيناً، وكان عصياً عليهن أن يتركن اللهو أو الدعة ساعة، ولما احتواهن الحي الشعبي ألفينه معبقاً بالروائح عتيق المنظر جليل الزوايا، وبمحاذاة وكالات القماش - التي كانت أوصدت بيبانها -وعلى كثب من الجامع

الأزهر والجمالية، مضت مسيرتهن مسترشدة بخيال الرجل من أمامهن، وتناهى إلى آذان الجميع من مقهى الجمالية أنغام شاعر الربابة، يقول:

- "بقول صلي على النبي زين.. محمد حبيب الحبايب.. وعلى القبة رفرف البيض.. ونفسه يزيح الغضايب..".

وبلغ السرور في نفس ساكنة كل مبلغ، ولعل الصوت الشجي قد أثار في نفسها ذكريات أيام خلت، وحرك الحبيس من مشاعر الصعلقة، ذلك حين كانت تجد في عين الصوت سلواها وفسحة نفسها المثقلة بالأعباء على عهد اشتغالها بمسرح خيال الظل مع نفر من المغنيين الشعبيين، وتواصل الإنشاد:

- "كلامي عن البطل أبو زيد.. أبوزيد وسط الجبال المخيفة.. يوعى لصبار كثير.. ينزل عليه الغزلان.. يوعى لصبرانة حلوة.. تحتها السبيل مليان.. يوعى لسرايا زينة.. مبنية بأربع عمدان.. أبو زيد شاف السرايا.. متروح بينا يا يونس.. نشوف السريا دي.. بتاعت مين في العربان !".

وهي كذلك حتى بلغت مبلغ العرس، فخبا صوت الربابة تدريجياً بغير أفول، وكان استقبال الأهالي لها ولتختها لا تعوزه الحفاوة، وحتى لقد نهض أكثرهم غير مصدق، واحتشدوا من أمامها كأنهم البحر العجاج.

وجلست ساكنة وفرقتها في مكان من مسرح العرس مرتفع، كمثل هيئة جلوس العلماء والقضاة، وخلع عليهن من طريق التندر لباس أهل الدين والعدالة، وقال من الجمهور واحد وقد ثمل بالشراب المخمور:

- أنتن يا بنات أهل الحل والعقد، وأما ساكنة فما أشبهها بأبيها الشيخ عبد السلام! فما حكم شرب الخمور بالأفراح؟
وأجابت إحدى العوالم متصنعة الحشمة:
- حلال، والله أعلم!
وقال آخر:
- وما حكم الإسراف في الأكل والتبذير فيه؟
وقالت العالمة :
- حكمه فيما أظن كحكم الخمر!
وكانت ساكنة تساير الجمهور الذي يمضي وقته بالضحك والأسمار حيناً، لكنها لم تكن لترضى - وهي التي جبلت على خصال التأدب - بما يجري حولها، ولعل تشبيهها بأبيها قد أوغر صدرها، فآثرت الكتمان.
وانجذبت الأبصار إلى فرقتها انجذابها إلى المهم واللافت من الأمور، ومن أمامها كن النسوة من أهالي العروسين يرفلن في ثيابهن المتأنقة، متحليات بحلي من ذهب وفضة، مظهرات بعض الزينة بالخضاب والحناء، قابضات على شموع موقدة، وأما الرجال فكن في العناية بمظهرهن دون النساء، حد السخف وعدم الاكتراث. وقالت ساكنة لما أبصرت النسوة: "مسكينات هن اللاتي يدخرن الزينة والثياب لأجل أن يتباهين بهما في يوم أو بعض يوم، وما خلا ذلك فحياتهن شقاء متصل وعذابات مقيمات.".
واستقبل العريس بالزغاريد والتهليل حتى اصطخبت الأجواء، وعضته من يمينه ومن شماله امرأتان من ذويه، وحارت ساكنة في تفسير ذلك التقليد حيرتها حين تراه في كل مرة. ثم لقد

دخلت العروس- بعد أن أتمت زينتها - إلى فضاء المشهد الصاخب، وكانت الماشطة قد تولت تكحيلها وتمشيطها وتهذيب حواجبها، مروراً بتحمير وجهها وتخضيب شعرها وأطراف أصابعها، وحتى تفليج أسنانها بالمبرد، فبدت آية الاكتمال. ووقفت العروس بين يدي زوجها فكشفت الجلاية عن وجهها، وحينذاك أخذت تدور، فكلما دارت نثر الزوج، ومن معه عليها نقوداً!

ونهض والد العروس وسار بين الحشود حتى حصحص موقعه، وجعل يصيح صياحاً عظيماً، توطئة لبدء فقرة الغناء واستهلالاً لها :
- سيدة الأفراح والأتراح، ربة الآلات والنايات، قنديل الليلات الكاحلة، واست البائسين بحضورها، وأضاءت الحسين بوهجها.. ساكنة!
وجاءت سكرة الغناء وانفرط العقد. وبدأت ساكنة إنشادها - الذي اختلط بضرب الدفوف وزغاريد النساء - بالصلاة على النبي ومدحه، ولعل منظر الخمور والأطعمة على المناضد كان ليشكل مع المديح المتزهد تناقضاً، لولا أن العيون ألفته والنفوس أنست به في مناسبات لا يولي فيها الناس لغير المرح اعتباراً.
ولمحت ساكنة بين الحضور من يرتدي الطربوش فانقبضت لرؤيته أشد الانقباض، واستغرقت في صورة الرجل وفي طربوشه الأحمر القاتم، وفي تلك الحزمة المتدلاة من الخيوط الحريرية السوداء من جانبه الخلفي، استغراق الحائر المتهيب.

وعلة ذلك أن حي الغورية - شأنه شأن غيره من الأحياء الشعبية - لم يكن يضمن إلا الأشقياء، فلا يجيئه أصحاب الشأن إلا لغرض. وعلى ذلك، فقد اهتدت إلى حقيقة أن الرجل - على الأظهر - إنما جاء ليسمع ويرى ويقيم. ثم هو ينقل السمع والرؤية والتقييم إلى الوالي عباس حلمي باشا، أو إلى معاونيه الأقربين، وعليه يتقرر إذا هي تنفع أو لا تنفع، ولعلها تذكرت وعد الضامنة لها بلقاء الوالي فازدادت يقيناً بوجاهة حدسها.

واستأثر بها الاضطراب فاجتهدت أن تطرده، وكانت أن ركزت ناظريها على الرجل وعلى موقعه وتبسمت له، فتبسم لها، وجعلت تغنى له دون سواه:

| | |
|---|---|
| ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا | سر أرق من النسيم إذا سرى |
| وأباح طرفي نظرة أمّلْتُها | فغدوت معروفاً وكنت منكراً |
| فدهشت بين جماله وجلاله | وغدا لسان الحال عني مخبراً |

ورنا إليها الرجل مشدوهاً معجباً، وحانت منه هزة استحسان برأسه، ثم لقد أرسل إليها من يدعوها إلى لقاء يخصهما فوافقت بعد أن نزل المضحكين إلى ميدان المضاحكة، وقال وقد انفرد بها:

- أخشى أن يساء فهم خلوتنا معاً، ولولا معرفتي بسمعتك الطيبة لانتظرت حتى ينتهي أوان العرس.

وقالت خفيضة الصوت :

- من دأبي ألا أقيم للحاسدين وزناً.

وأسبل جفنيه مرتاحاً وقال:

- وأما أنا فرسول مولاي إليك، جئت لأنقل إليه ما تناهى إليَّ من أمر ذلك الإنشاد الباهر الذي عرفتي به في أوساط الخاصة والعامة نقل المعايش له، ولعلك ممن سبق لهن إحياء المناسبات في القصر السلطاني، وفي قصور الأمراء، وحتى لقد كان إحياؤك لفرح ابن مولاي المغفور له بإذن الله إبراهيم بك سبباً لتقدير موهبتك لدى أفراد الأسرة أجمعين، وأذكر للمرحوم أن شبهك وقتها بالثريا الساطعة !

وتساءلت ساكنة بعد أن فهمت المغزى :

- وأي من القصور يود مولاي أن أجيء إليه؟ وفي أي موعد؟

وقال الآخر :

- في سراي الحلمية وحديقتها الكبيرة، آخر ما بني على بركة الفيل من المعمار، وعلى أطلال بيتي المملوكين المقبورين: إبراهيم الكبير وابنه مرزوق، كما تعلمين، وسوف تبلغك الضامنة بالموعد متى آن.

وشكرت له جوابه، فقال :

- ولكن بقى أن أنبهك إلى بعض مما يليق بك أن تتحاشيه إذا أنت توخيت السلامة، وتفصيل ذلك أن العلاقة بين مولاي عباس حلمي وبين مولاي المغفور له إبراهيم بك لم تكن يوماً على ما يرام، وفيما خبرني به بعض الثقات، فلا ذكر يجيء لسيرة الثاني - حتى بعد رحيله - إلا وكان الأول منه في ضيق وضجر، ولذلك أسبابه التي لا يتسع لذكرها المقام، فحاذري الحذر كله أن تجيئي على ذكر إبراهيم بك بخير أو بشر، ثم أن مولاي عباس حلمي، ويالحكم القضاء، لا يعيش له ولد، وخلا ابنه الأمير إلهامي باشا فقد مات أبناؤه صغاراً، وعلى ذلك

فالسؤال عن البنين وأحوالهم، ولو من باب التلطف والتعارف، لا يستحب، بل هو مكروه.
وقالت في إذعان :
- مفهوم، ولكن ماذا يؤثر من الغناء؟
وقال الآخر لا يكاد يقطع بجواب إلا وينقلب متوقفاً :
- أخال أنه ولعشقه للبادية والفروسية، يؤثر ما يتصل بهما من موضوعات الغناء، ابحثي عن الفيافي والرمال ما أمكن، وأنشدي أخبارهما.
واستطرد لما أحس منها قلقاً :
- ثم أوصيك بالهدوء إذ أنهم بنو آدم أمثالنا، وأن الوالي متى أعيته المسؤوليات بحث عن أناس يعاملونه بغير تحفظ، والحياة على القمة باردة فاترة.
وقال وهو يهم بالانصراف :
- حدثتني الضامنة نعيمة عن عزوفك عن أمر الزواج حديثاً أثار بواعث دهشتي. فتلك الروح الخلابة التي تخرق حجاب الأسحار، وذلك الصوت الحسن كمثل قارورة الطيب، هما خصلتين عز نظيرهما في زمننا. اسمي هو عزيز، وعملي رفقة مولاي وتحت إمرته أطلعني على أسباب كثيرة للمسرة والدهش، لاريب أن منها التعرف عليك وعلى صوتك.
ومد يده، فمدت يدها في حياء وتصافحا. وترامى إلى الأسماع صوت هرج ومرج فالتفتت الرؤوس إلى مصدره، وكان شجاراً وقع بين مؤيدي "أبو زيد"، وبين مؤيدي"دياب" في مقهى الجمالية، وأما شاعر الربابة فألفى نفسه في حيرة من

أمره بين الفريقين، وأخذت ساكنة تستطلع ما يدور برهة، فلما أرجعت البصر إلى عزيز لم تجده.

## 5

قالت الضامنة نعيمة لساكنة وهما جلوس:
- عزيز آغا! ليس في القصور كلها من يضاهيه في لباقته وفطنته وحسن خلقه، وهو من الأغوات البيض الذين يرادف ظهورهم في مكان سيادة النظام فيه، وهو إلى ذلك حلقة الوصل بين الحرملك وبين ما عداه، وحتى إذا أخلد إلى النوم ساعة انقلب القصر برمته فوضى عارمة، ولما أغلقت مدرسة الأندرون* قبل عقد من الآن أو يزيد، وشغرت وظيفته التقطه مولاي لحاجته إليه في دولتنا، إن معالم رجولته لم تطمس، خلافاً للشائع الجاري على أكثر الأغاوات في حداثتهم!
وتابعت في همس لما وجدت من محدثتها شوقاً إلى سماع المزيد :
- وقد خرج على القواعد التي تجرم دخول الذكور من مثله إلى الحرملك والمستندة إلى ضوابط الشرع، ذلك لما يحظى به لدى مولاي عباس باشا من عظيم الثقة، ولدى النسوة من مهابة أوقرها تأدبه في نفوسهن.
وقالت ساكنة في حبور:
- قد قال لي بأن معرفته بي من دواعي سروره.
وقالت نعيمة مرحة :
- ذلك قول لو تعلمين عظيم! ولعلي لم أسمعه يثني على امرأة قط في حياته خلا أمه.
وقالت نعيمة وقد عادت نفسها إلى الجد :

- بقى أن تكتبي رسالتك إلى الوالي لتشكري له دعوته، وذلك من إجراءات المراسم التي لا محيص عنها، كما تعلمين.
وأخرجت القلم والمحبرة، وقالت :
- ها هي ذا! ولن أراجعك فأنت فيما أذكر أكثر المغاني تعلماً وتثقفاً.
والتقطت ساكنة منها القلم وجعلت تكتب في أناة، ثم تردد ما تكتبه بصوت مسموع :
- "ولي النعم، أفندم سلطانم، سعادة أفندينا الباشا دام إجلاله، أنه في أشرف الساعات تشرفت خادمتكم ساكنة ابنة عبد السلام في قدوم حضرة المندوب من طرفكم، عزيز آغا، بخصوص دعوتي إلى حفل حددتموه في سراي الحلمية، وتركتم لجلالتكم توقيته، ونتعهد أن ننفذ ما أمرتم به، هذا لعلمكم، والأمر لمن له الأمر. في 20 شعبان 1267 ه".
وأخرجت نعيمة من جعبتها فستاناً أبيض وقالت:
- لئلا تكوني دون نسوة القصر زينة وبهرجة، ولكن الحذر الحذر أن تكوني سبباً في غيرتهن. وسوف يحفل القصر بالحواة والقرداتية، ولسوف تشارك الطوائف في الألعاب، فالواجب أن تمتازي عن هؤلاء جميعاً وإن جمع بينكما غرض التسلية. على أن تعيديه إليَّ حين انتهاء العرض.
وأومأت ساكنة برأسها وهي تتفحص الفستان بعينين لامعتين، متوثبتين.

وحل اليوم الموعود ولاح في الأفق ضياء وانٍ، فلما تدانت إلى سراي الحلمية انتابتها رهبة ورجفة، على اعتيادها ارتياد مثله

من قصور، ولما رأت هول العمران وينع الطبيعة من حولها نشدت حياة مثل هذه، وكان يتوسط مبنى القصر حديقة، وتحيط به الحدائق من جهاته الثلاث: الشمالية والجنوبية والغربية، وتحلق الحدائق سور متين، وقال عزيز آغا وهو يصحبها بنفسه متولياً الإرشاد:
- إن القصر متاخم لسرايا درب الجماميز المملوكة للأمير مصطفى باشا فاضل غاية المتخامة، وهو واقع في شمال غرب قصر علي باشا مبارك، وكذا شمال قصر الأمير أحمد باشا طلعت، ومن يدري؟ فلعل لك موقعاً بينهم يكون هنا عما قريب.
وقالت ساكنة باسمة :
- نصيبي من العز قليل، وحظي أقل، فلا تشغل بالك!
وجاء من أسر بأذن عزيز حديثاً، فقال الأخير لساكنة :
- مولاي يدعوك للتو إلى حضور وليمة أعدها لرفقة النبلاء والأعيان.
واصطحبها عزيز إلى هنالك، وكانت تستعين على شعورها بالانقباض باستظهار آي القرآن، ولاحظ عزيز منها ذلك فقال :
- بلغني عنك أنك أنيسة في المجالس، لا يستعصي عليك حوار الرجال، لبقة اللسان، فماذا لو كنتي غير ذلك؟
ولم تكن في حال يسمح لها بشكره، ودلفت إلى البهو حيث ينبغي أن يقام الحفل الكبير، فوجدت نفراً من الأكابر ونسوتهم قد اصفطا عن يمين وعن شمال على امتداد البصر، وأما الوالي ففي موقعه الممتاز متكئاً على أريكة ذات أرجل ذهبية، يشرب الماء من كأس من فضة، ويبدو محتاطاً لشيء لا يعلمه إلاه، وقال:

- يجب أن ترتاب من كل مخلوق أولاً حتى يثبت لك ولاؤه، وإلا لا دام لك مكسب في هذه الدنيا، والقائلون بعكس ذلك ميالون إلى مثالية زائفة.
وجلست ساكنة عند طرف المجلس مجتهدة ألا تحدث أثراً يجذب لها بصراً، أو يقطع للوالي حديثاً، وهي في نظر الجالسين غريبة، وقد بلغ الحضور حداً من المداهنة أنهم وافقوا الوالي في كل ما ذهب إليه، وكان لا يقاطعه منهم واحد إلا ليؤيده بمزيد من أمثال ما يقول، وأخذت ساكنة تحدث نفسها :"ترى هل أن هيبة المنصب ووحشة المكان قد حملتا الجميع على ذلك؟ أم طمع النفوس في أن تجني من وراء النفاق مغنماً؟"، وأخذت تحملق إلى بطنه، وكانت هائلة الحجم جداً، وأما هو فلاح لها في موقعه البعيد ضئيلاً، واقترب عزيز منه فهمس في أذنه وأشار بسبابته إلى موقع ساكنة، وقال الوالي وهو يضحك :
- هل تدري أي وصف كان يخلعه جدي المرحوم محمد علي على حاشيته إذا رأى منهم ما لا يعجبه؟ .. الحمار!
وضحك القوم من طريق التكلف، وانزوى عزيز خجلان حتى غاب، ونهضت ساكنة فقال لها الوالي :
- إن منظرك مألوف لدي، ولكن لم أتخيل أن يدفعك الخجل إلى التواري.
وقالت ساكنة متأدبة :
- وإنما يليق بنا جميعاً التواري في حضرتك يا مولاي. ولعل يوماً ساقتني فيه أقداري السعيدة إلى إحياء حفل ابن مولاي

المغفور له إبراهيم كان سبباً في أن تنطبع هيئتي في وجدان جلالتكم.
وبدا على عباس الامتعاض من ذكر إبراهيم، وقال كأنما التقط من حديثها طرفاً وأغفل ما سواه :
- وقد مات إبراهيم لا طيب الله ثراه شر ميتة، ولم يمكث على مقعدي هذا إلا زهاء سبعة أشهر، وآل إليَّ من بعدئذ ملك جدي محمد علي، فتلك هي تصاريف الأقدار التي تنصف المستقيم من الرجال.
وقال من القعود واحد :
- كانت شهور حكمه شهوراً عجافاً، أساء بها إلى الشرف والنزاهة !
وقال عباس :
- بل كان دائم الوشاية بي لدى جدي محمد علي، فلا يذكر له إلاسَوْءاتي ، ولأن محبة جدي انتقلت من والدي طوسون بعد رحيله إليَّ، فلم تجد تلك الدعاية الكاذبة على إلحاحها آذاناً صاغية.
وأدركت ساكنة أن تغافلها عن نصيحة عزيز لها بعدم الإتيان على ذكر إبراهيم قد أضر بودية الجلسة وأضاف إليها حرارة زائدة، فجعلت تأنب نفسها صامتة، وقالت :
- هل عساي أن أقتطع من حديثك الشائق برهة أسمعك فيها بعض إنشادي يا مولاي؟
وبسط كفه إيذاناً بالقبول، فقالت منشدة* :

وجنبني حبيك وصل معاشري وحببني، ما عشت، قطع عشيرتي

وأبعدني عن أربع، بعد أربع: شبابي، وعقلي، وارتياحي، وصحتي

---

فلي، بعد أوطاني، سكون إلى الفلا  وبالوحش أنسي إذ من الأنس وحشتي

وصفق لها الوالي فحاكاه البقية، وجعل يردد مستحسناً:
- "فلي، بعد أوطاني، سكون إلى الفلا  وبالوحش أنسي إذ من الأنس وحشتي." عفارم !
وكانت شمس المغيب قد أخذت تنسحب، فغرق البهو في عتمة يائسة، ومال لون الأشياء فيه إلى الداكن الباهت، وحينئذ نهض الوالي يقول :
- يقال بأن الوالي لا يصح أن يمكث جالساً بينما الأنوار تنسحب من حوله، فتلك إشارة رمزية إلى عرشه الذي لربما تغيب عنه الشمس، هل هو التطير؟ لا، إن أموراً مثل هذه إن صحت وراعيتها فقد فزت، وأما إن نفذت وأهملتها فقد أصابك خسران مبين، ثم إنها لا تطلب وفاء بها إلا الجهد اليسير.
وجلس بعد أن أطمأن إلى استتباب الظلمة، وكان أن دعا قيامه سائر الحضور إلى النهوض، وقال:
- وأكثر الحكام يتبعون الهوى، وأما أنا فأنتوي مد السكة الحديدية من الإسكندرية إلى القاهرة على أسس العلم الحديث وحده، وآية ذلك أن عهدت إلى روبرت ستيفنسن* بتنفيذ المشروع الذي سوف يحمل خيرات للعباد والبلاد جمة، وقد جرى توقيع عقد قيمته ست وخمسون ألف جنيه إنجليزي لأجل تنفيذ ذلكم الغرض، وأما البحارة المصريون فعليهم واجب تعبيد الطريق وتركيب القضبان، ولسوف نسبق بمثل ذلك الشرق كله في أعمال العمران.

وصفق الحضور تصفيقاً لم يقطعه إلا استطراد عباس الذي نظر إلى ساكنة كمن يستذكر شيئاً :
- أخبرني عزيز شيئاً عن رحلتك من الإسكندرية إلى القاهرة، فلو أن مثل تلك السكك الحديدية كانت في زمنك إذاً لتجنبت بها شقاء الأسفار.
وكانت ساكنة لا تزال واقفة، فقالت :
- اهتمامك بي عطف أقدره يا مولاي.
واستتبع حديثه غير مبالٍ كالذي اعتاد على الثناء حتى لم يعد يميزه:
- وأما شغفي فهو الخيل والهجن، وما خلا ذلك من أمر فهو عارض في حياتي، ولا أستثني من ذلك الحكم نفسه! وإني أجيء بالكريم منها من شتى البلدان، وأعنى بتربيتها وبناء الاصطبلات الضخمة لها عناية الهواة الشبان.
وأشار بطرف هامته إلى لوحة زينت جدار البهو، وكانت تحوي صورته ومن ورائه حصان أبيض، وقال:
- انظروا لتلك اللوحة مثلاً، هناك، إذا قدر لي أن أصطفي أثراً يبقى لي، فيتذكره الناس، فهو هذه.
واستكان عباس حيناً للاشيء، حتى ظنه الناس قد سها عنهم وغفل، وقال:
- أخال أن المساء وقت الطرب والسمر، لا النقاش.
وعلى ذلك أخذ المجلس في الانفضاض، رويداً رويداً، فانصرف من انصرف، وبقى أقل القليل، وجاءت الخادمات فحملن آنية الأطعمة، وهنالك استوقف عباس ساكنة فقال:

- قبل أن يستولي عليَّ النسيان، فثمة قراران وددت أن أكتبهما قبل أن يضيعا في التيه، أحدهما: لسوف يصرف لك البلاط جراية شهرية، وأنت بذلك أول من كان له هذا من النساء من أهل الأدب والنغم. والثاني..

وأخذ مدة يتفكر، حتى قال للكاتب متهكماً من نفسه:

- أخشى أن يكون الخرف قد أصابني كما أصاب جدي.. لا تكتب هذه.. الثاني: لسوف تذهبين صحبة الحريم إلى قصر طوب قابي في الأستانة لإحياء بعض الحفلات هناك.

وقالت ساكنة وقد طغت على وجهها أمارات الامتنان:

- ذلك العطف الذي نالني فوق ما أطمع فيه، وهو جزء من عطفك الشامل على دولتنا، وعلى المستضعفين فيها.

وقال لها وهي تنصرف :

- أكثري من غناء مقام العجم ونحوه، فما أشد حاجتنا في القصر إلى المباهج!

وانصرفت مشرقة الفؤاد لا تكاد تصدق، ثم وقفت إلى جوار واحدة من النوافذ وحيدة، و شردت فيما ينكشف منها من الأشجار والاخضرار، ثم ظلت حيناً تهيأ نفسها للغناء من طريق التأمل والاستغراق، حتى باغتها عزيز - كمن ظهر من عدم - بقوله:

- ها قد انقضى اللقاء المنتظر على خير وجه!

وقالت في أسف :

- ولقد أعتذر إليك عما صدر من الوالي من تجاوز في حقك لا أرتضيه، وقد كان الخطأ خطأي ساعة انزويت في طرف المجلس، ولم أصارحه بوجودي أول حضوري.

وقال هامساً، منفعلاً، متجرداً من مقيدات الوظيفة :
- تلك من الهنات الهينات فلا تثريب عليك، وأما أخطاء المراسم إذا هي تتعلق بالوالي ومكانته فقاتلة، لا تبقي ولا تذر.. وأما بخصوص مولاي فماذا عساي أن أنتظر من رجل رتب لجده بُعيد أن وافاه الأجل جنازة وضيعة متنكراً لأفضاله عليه، ثم ناصب أعمامه عداءً مستحكماً لأجل الحكم؟ هل تتوقعين عفة اللسان ممن لا يرقب في أهله إلاً ولا ذمة؟
وقالت تجاريه في مواساة، وكان وجهه لا يزال كأنه ينطق تعبيراً بالمثل: إنك لن تجتني من الشوك العنب :
- ثم هو مثيل جده الكبير في تطاول حديثه وجهامته، وكذا في منهاج تعامله الخشن مع مرؤوسيه، كما زعم مباهياً.
وقال عزيز مأخوذاً، مهمهماً:
- حاشا محمد علي- عليه سحائب الرحمة والرضوان - من هذا، والمأثور عنه قوله لابنه إسماعيل كامل: "إذا اخترت أن تحب نفسك فوق حبك لرجالك، فإني لن أحبك."، وإنما يريد مولاي عباس أن يتمسح بالقبيح من سيرة جده، تاركاً مآثره الجلي، ليبرر بها تجاوزه.
وعلى كثب منهما كن هوانم القصر يتناجين، فقالت إحداهن وقد اجتاز صوتها الحدود:
- تلك المرأة السمراء ذات العينين الجاحظتين والوجه الدميم، يدعونها ساكنة، وقد طلبها الوالي بنفسه لمرافقتنا إلى الأستانة، وجعل لها عزيزاً ديدباناً يحرسها من هفواتها وزلاتها، لعمري إنها سوف تكون محط تندر الأوروبيات، شأنها شأن الغراب بين ببغاوات!

وقالت أخرى ضاحكة :
- ثم إنها امرأة محافظة ومثلها يستنكف عن أن يذوب في مجتمع حر يشوبه المجون.
وزحفت علائم الغضب على الوجه الأسمر، فقالت توجه لهن حديثاً في تحدي:
- ألا يكفيكن من القلادة ما أحاط بالعنق؟ أعني، ما شأنكن سيداتي بهيئتي وطباعي إذ كان صوتي ذريعة حضوري هنا؟
أدرك عزيز خطورة ما جاءت به من قول مجترئ، أخذ من الوقت هنيهة يقلب وجوه العواقب، جذبها من يدها بعيداً من مجال النسوة، قال لها:
- ترى هل اخترت ذلك الفستان بغية أن تعادلي ببياضه بشرتك السمراء النيلية؟ أم إنها الصدفة؟

* مدرسة لإعداد الكوادر بالدولة العثمانية، والدول التابعة لها.

* من أشعار ابن الفارض.

* روبرت ستيفنس: مهندس مدني إنجليزي. (1803م: 1859م).

## 6

وأحيت ساكنة في سراي الحلمية ليلة رقص وطرب، ثم باتت في الحرملك بيتة هنيئة تهيؤاً للسفر، واستغرق الترحال من القاهرة إلى الأستانة زهاء أربعين يوماً، ومن طريق البر وفي عربات تجرها الخيول نال الإنهاك من المسافرين مداه، وفي خضم ذلك اجتهد عزيز أن يبدد وحشتها أعظم اجتهاد، فيلقي عليها الظريف من النوادر تارة، وتارة يشرح لها الغوامض من المسائل، كقوله:

- وقد أهدى الأمير عبد الله بن سعود أكثر تلك الخيول - التي تأخذ تجرنا - إلى الأمير طوسون رحمه الله، عربوناً للصلح بينهما، وقد نفق أكثر تلك الخيول المهداة بسبب من الإهمال والعطش والمرض، حتى إذا تولى مولاي عباس حلمي أمر الولاية بذل جهداً عظيماً لإنقاذ ما تبقى منها.

وإذا اهتزت العربة لوعورة الطريق، قال :

- لا تقلقي، فالخيل معقود بنواصيها الخير، كما قيل في الأحاديث.

وإذا سألته عن الأستانة، أجاب:

- إنها بلاد ساحرة كل ما فيها يغني، ليس فيها حر القاهرة، وأحياناً ما يحس المرؤ فيها برودة، والحرارة فيها هذه السنة أقل من المعتاد، وأهلها من العجم لكنهم قوم طيبون.

وإذا عادت تسأله عن نسوة القصر، قال متحفظاً :

- إنهن يتحسبن من أيما امرأة تفد إلى القصر، ويعدنها، وياللعجب، منافسة لهن وخطراً من الأخطار، ولأجل ذلك يخلصن في عد مقابحها والبحث عما يزري بها من المظهر أو السلوك، وذلك الذي يبعث طمأنينة في أنفسهن القلقة، وأما شازدل قادين فجركسية الأصل رزق منها مولاي حديثاً ببنت اسمها حواء، وهمدم قادين لم تنجب له أولاداً قط..

ثم وهو يتأمل مشهد الطبيعة من حولهما:

- وأكثر حديثهن (يريد نسوة القصر) غثاء وسفسطة، فلا تتركي وجدانك نهباً لترهاتهن.

ولما انقضى للترحال زمانه، ضُرب على ظهور الأحصنة بالأسواط حتى علا صهيلها في الأفق الجديد، وقال عزيز لسائق العربة:

- حنانيك يا فتى! وكل ما انتسب إلى الأحياء فيحرم الجور عليه.

ومسح على رأس الحصان بيمناه، وكان أن دعا ذلك ساكنة إلى إكبار مسلكه الرحيم، وتناوبت العربات على التوقف تباعاً، ونزل منها الحريم فاحتجن في سبيل الهبوط إلى معين من الخدم، وقال عزيز وهو يبسط لساكنة يده:

- ماهوش قادين، شازدل قادين، برلانته هانم، هواية قادين، همدم قادين، هن حريم الوالي المصاحبات لنا، لا جرم عليك إن اختلطت عليك أسماؤهن أن تناديهن بقادين أفندي بغير تمييز!

فإلى هذا يخلص حداثى العهد بحياة القصر هنا على الأرجح.

وجالت ساكنة فيما تبدى لها من صورهن، وأنهت نظراتها المشوبة بالريبة بقولها:

- وماذا تعني قادين؟
وقال في تقرير:
- إنها تلك الجارية التي ارتقت إلى مكانة تفوق مثيلاتها من نسوة الحرملك، ويخصص لها بعض الجواري لخدمتها لما امتازت به من الفضل، وأما المفردة فتعني "امرأة" بالشركسية، و"سيدة" بالتركية، ولقد تحار النفوس لما تعرف أن للعبودية أسياداً!
وهمس في أذنها قائلاً:
- مولاي يتنكر لأبنائه منهن (يريد القادينات)، اللهم إلا ما أُودعت السجلات سره.
واستقبلهم رجل من العاملين بالقصر العثماني فانحنى تشريفاً، وتبادل مع عزيز كلمات لم يفهمها إلاهما، وقال الأخير بصوت سمعه الجميع:
- أخبرني الأفندي مبعوث الحضرة السلطانية الفخيمة إلينا، أن السلطان العثماني عبد المجيد الأول ليس في وسعه أن يلتقي بنا، نظراً لما طرأ على خططه من شواغل لاهية، غير أن بيبان القصر العثماني الأكبر قاب طوبي مفتوحة لأصدقاء العثمانيين من شتى البقاع المعمورة. ويستحثني على التوقف عن ركوب الخيل داخل المدينة لأنه ممنوع، والمسموح به جرها اتقاءً للحوادث، ومثل ذلك الإجراء يسري على الجميع.
وتحرك الموكب فترجل من ترجل عن صهوات الأجياد، والتفت عزيز إلى ساكنة يخصها بحديث آخر:
- مولاي يسعى لسياسية جديدة مع السلطنة العثمانية، يخرج بها على المعروف من سياسة جده وعمه، تقوم بإدامة الوفاق بين

الطرفين حتى حين، ولعل إيفاد المغاني والحريم إلى هنا من شأنه أن يبدد سحب النزاع التي استعرت نيرانها فيما مضى حتى بلغت منتهاها على عهد ولاية محمد علي، وأدت أدخنتها المتصاعدة إلى تدخل الغريب من الدول لرأب الصدع وجمع الشتات.
وقالت ساكنة في تسليم:
- لا بأس بأن يستعملنا في خدمة الدولة!
وحملت النسائم أريج الزهور إلى الحواس، وقال عزيز مخاطباً الحريم:
- إن مصدر الرائحة هو حديقة غولهانة (Gülhane)، وتعني حديقة الزهور، وهي مخصصة للسلطان العثماني ولكبار الشخصيات، وعلى ذلك فلن يتسنى لنا دخولها.
وتبادل عزيز مع مبعوث السلطنة بعض كلمات، وقال:
- يخبرني الأفندي أن للقصر ثلاثة عشر باباً، وأما باب هومايون أو الباب العالي، كما ذاعت تسميته، فهو أفخمهم، وقد درج النظام هنا على أن يُفتح مع حلول آذان الفجر، وأن يغلق عند آذان العشاء، وسوف ندخل إلى السراي منه.
وقالت ساكنة لعزيز وقد هالها حجم القصر:
- أخشى ألا يفهم الأجانب مرادي من الغناء، فيحول اختلاف اللغة دون استمتاعهم بالإنشاد.
وقال عزيز وهو يشير إلى فؤادها بإصبعه:
- ما ينبع من القلب يصل إلى القلب، وللمرء أن يستشعر جمال النغم ولو غمض بيان الكلمات.

ونظرت إليه معتبرة بحديثه. ولما دخلوا من باب هومايون وجدوا بقعة محاطة بالأسوار أشبه بالطريق فيها أشجار من السرو ضخمة، وزاد منظرها الخصب اليانع من سكينة ساكنة حتى لقد أملت أن تذوب فيها، وكان كيانها يفيض بالجاذبية المرحة، تسابقت مع عزيز في قطع مسافة البقعة البالغة أربعمائة متر، فسبقها هو، ونظر نسوة القصر إليهما في غيظ حانقات، انتهى سيرهم بباب أورته قبو الذي أفضى إلى بستان مهمل، وأخذوا يتنقلون من موضع إلى آخر، قالت ساكنة وهي تدور حول نفسها في نشوة:

- ولقد يكفيني هذا، وذلك لكيلا يستأثر الإنهاك بي فيضر بمقدرتي على إحياء السهرات.

وقالت ماهوش قادين لبرلانته هانم في خبث :

- إذن فالواجب أن يجري إنهاك الصبية أكثر وأكثر!

وضحكت شازدل قادين وقالت :

- إنها تحسب التقرب إلى القصر أمراً هيناً، ولن ندع لها الفرصة.

وقالت همدم قادين:

- عزيز يعاملها معاملة صبية قاصرة! ولقد انصرف عن واجب إرشادنا إلى إرشادها هي! يبدو شغوفاً بها.

وقالت ماهوش قادين وهي تصر على أسنانها:

- ومثلها لن يرضى بأقل من الإيقاع بالوالي! وعزيز لقمة سائغة تزدريها في سبيل ذلك.

وقالت برلانته هانم :

- كفوا ألسنتكم! وإنها لامرأة ساذجة فيما يتراءى لي.

وفي أثناء طواف مجموعة الحريم والخدم بين حنايا القصر وجدوا أحجاراً من اللؤلؤ والعقيق والفيروز جلت عن الأشباه، وكذا عرشاً فارسياً نفيساً، وآخراً مصرياً جاء به السلطان سليم لما غزا مصر، ولقد جالوا مقاصير السلاطين فكانت آية في ثراء التأثيث بالطنافس والمذهبات.

وهمس عزيز في حسرة حين رؤيته للعرش المصري المسلوب:

- ولو أن محمد علي قد استمع لنصيحة ابنه إبراهيم بالتقدم إلى إستانبول وإسقاط خلافتها، يوم فصل بين جيش الابن وبينها خمسون فرسخاً، ولم يسلك الأب حينذاك سياسة خفض الجانب ومنهاج التردد لتغير الحال واستردت الحقوق.

على أن ساكنة أحست حين رؤيتها للعرش المصري شعوراً مغايراً، فقالت في نفسها :"وكم أهفو إلى أنفاس القاهرة الحارة، وأناس أعرفهم ويعرفونني! "، وقال عزيز لمجموعة الحريم حين انتهى التجوال :

- وعلى رغم الذي تهيأت لنا فرصة معاينته من دلائل الفخامة المنظورة، فقصر طوب قابي هو أقل القصور العثمانية زخرفاً وأبهةً، والحديث عن ثورات الانكشارية ممن كانوا وما زالوا يعلنون العصيان في فنائه، أو في مياه البسفور التي تطل عليها نوافذه حديث سائد هنا، ذو شجون.

وقالت همدم قادين خفيضة الصوت هازئة :

- إنه يخص المغنية بأحاديث الغرام، فإذا خاطبنا ذكر لنا الثورات والنظام والقانون!

وحل الليل الذي ابتلع الأشياء تحت ستاره، ووقفت ساكنة تغني ومن ورائها الذي يضرب بالعود *:

يا فاضح البدر في الكمال... مالي

أراك لما ترى انتحالي...حالي

وأنت إن ملت لانتقالي.. قالي

تجد حمام الحمى رثاني.. ثاني

وصفق الجمهور الذي ثمل بالشراب والأنغام تصفيقاً، ولقد غُني طويلاً بالعوالم اللاتي كن يرددن الكلمة الأخيرة في مرح، متكسرات، مثلما جذبه إلى ساكنة جديتها وقوة صوتها، وعذوبته. وقالت برلانته هانم وهي تبصر حفاوة التجاوب حولها:
- من حسن التقدير أن عباساً لم يجيء معنا إلى هنا، وإلا لافتتن بها، إنها ذات صوت باهر.
وقالت ماهوش قادين في غلواء :
- هل تقرين بالهزيمة؟ ولقد كنا ولانزال أجمل منها.
وقالت همدمد قادين في إقرار :
- عباس لا يتسامى عن أن يتزوج بالمرأة إذا أعجب منها بوجه واحد، أما رأيت إلى تلك التي جاء بها إلينا من البادية فجعل لها قصوراً وأطياناً؟

وانقضت أولى السهرات كمثل طرفة عين، وقصدت ساكنة إلى حجرتها تستريح فوجدت عزيزاً ينتظرها، وضم على يدها، وقال:
- ولقد انهال الناس هنا عليَّ يسألونني عنك، من أي بلد هي؟ وكم عمرها؟ وهل لها أن تعود إلينا؟ رأيت ألق الإعجاب في أعينهم الزرقاء والخضراء.
وقالت ساكنة ووجهها لا يفارق تأثره :
- وتلك ثمرة دعاء أبي عبد السلام لي، ورضاه عني. ثم نصيحتك لي بالغناء الصادق الذي يقر القلوب.
وحضرت العوالم إلى الحجرة فتوارى الرجل خجلاً وبدا كالمنصرف، وظل يتراجع بخطاه إلى الوراء متمهلاً يطيل المدة. وقالت عالمة منهن فرحة :
- ولقد كان الموت أحب إلى نسوة القصر من أن يرن مثل تلك الحفاوة التي أبداها لنا في آن الأكابر والأصاغر، وجعلت من إنشادنا أحدوثة يلوكها أربعة آلالاف من العاملين بالقصر ومن الوافدين إليه، في استحسان.
وقالت العالمة حليمة (تريد نسوة القصر):
- أبصرتهن حَزانَى وقد جمَّدَت الحسرة أطرافهن، أما نحن، فطوبى لنا!
وكانت ساكنة تستظهر كلمات الموشح الثاني، فقالت باهتمام:
- قلن عني ما ليس في، وناصبنني عداءً بغير سبب، ولسوف أوجه لهن لكمة أخرى تنال من غرورهن!
وابتدأت السهرة الثانية فتزين الليل بالأنوار، وطفقت ساكنة تنشد، وبين إنشادها تطيل النظر إلى ماهوش قادين، ثم تمرر

بصرها على برلانته وشازدل وهمدم لكأنها تخصهن جمعاوات بكلمات الموشح*:

يقول لي: وجهي بدر التمام

ومفرقي صبح، وشعري ظلام

ووجنتي الحمراء كأس المدام*

والخال* كالمسك، عليها ختام

محاسني ليس عليها غبار ولا عيار*

سبحان من كونها باقتدار!

وتكاد نسوة القصر يمزن غيظاً، فحينئذٍ تحول ساكنة بصرها إلى ما عداهن، ثم ما تلبث ترجع البصر إليهن، وهكذا دواليك، حتى انصرفت ماهوش قادين وشازدل قادين من القاعة مستاءتين، وبقيت همدمد قادين وبرلانته هانم، فقالت الأولى للثانية:

- وجهها بدر التمام ؟! وإنه في لون الليالي الكئيبة!

---

*الموشحين للشيخ صلاح الدين الصفدي.

* المدام: الخمر. الخال: الشامة السوداء. عيار: أي معيار.

## 7

14 يوليو 1854م الموافق 19 شوال 1270 هـ
وتمر الأيام متتابعات، كمر السحاب، وساكنة لا تزداد في أعين الناس إلا مثابة ووقاراً، وإنه لتجري على صوتها السنون دون أن تنال من جوهره الحسن، فيزداد حرمة ونفاسة بل وإشراقاً، وذا نهار جاءها أبوها عبد السلام مبهوتاً مكهفراً فقالت حين رأته:

- ماذا دهاك يا أبت ؟

وقال مثقلاً بالهموم:

- وماذا يضنيني إلا شأن العباد والبلاد؟.. إن علاقة الوالي عباس وشيخنا الباجوري تتداعى يوماً بعد يوم، وبين الرجلين تلوح بوادر خصومة، مياه كثيرة قد جرت تحت الجسور، عباس يضطهد الأقباط ويعزلهم عن المناصب المهمة، ويفكر جدياً في نفيهم إلى السودان، الباجوري يرفض منهاج الحكم هذا لأنهم أهل ذمة. انظري كيف تقطعت بينهما الأسباب :

وقبضت ساكنة على ورقة سلمها لها أبوها، وأخذت تقرأ بصوت مسموع:

- "الحمد لله الذي لم يطرأ علي ذمة الإسلام طارئ. ولم يستول عليه خلل حتي تعذر بمن هم في ذمته إلي اليوم الأخير. فلماذا هذا الأمر الذي أصدرته بنفيهم؟".

وتابع الشيخ عبد السلام:

- عباس عدَّ الرسالة تجرؤاً كبيراً وثارت ثائرته، ومن المتوقع أن يدخل الأزهر ومشايخه في دوامات من تهميش ودوائر صراع جزاءً لاعتراضهم، ولسوف تكون أيامنا بعد الآن حبلى بالعقوبات. والذي سوف يحول في ظني دون ما هو أشد عاقبة وأفدح ضرراً هو تلك المكانة العالية التي يوليها عباس للباجوري وللتدين بالأساس.
وقالت ساكنة:
- المغاني أيضاً يرزحون تحت أعباء الضرائب، ولقد سمعت الناس غير مرة يترحمون على عهد محمد علي في الأسواق، إن طوائف كثيرة تشتكي إمرة عباس، وتحت الرماد جذوة نار مشتعلة. أحسب أن أيام عباس في الحكم صارت معدودات، لأن المظالم إن شاعت ورثت العنف وهيجت الثارات.
وقال عبد السلام وقد أحاط حديثه بالكتمان:
- دسائس القصر هي التي تودي بالحاكم في الأخير، ولكن إرادة الله فوق الأسباب. أخشى عليك - إن رحل الوالي بغتة - أياماً ينفرط فيها العقد ويهوي النظام الذي يربط الأشياء وأنت وحيدة. ولقد تستباح الأسواق ثلاثة ليالٍ.
وتنهد الشيخ - لما لم يجد منها جواباً - حتى بدا مغتبطاً، وقال:
- الناس لا سيرة لهم إلا أنت، وإنهم لا يضنون بحديث يذكرون فيه أخبارك في كل مجلس من المجالس، وأينما ذهبت يقصدونني ليقبلوا يدي ويباركوا لي زيجة لا أعرف عن أمرها شيئاً!
وقالت ساكنة في لهفة تخفي ورائها أمراً:

- لعلهم - المناكيد! - يقصدون عزيزاً، وإنه رجل رقيق الحواشي، كريم الخليقة، كعهدي به، وقد توطدت صلاتي به لأجل حفلات أحييها بقصور الأمراء ينظمها هو، وليس بيني وبينه ما يزيد عن ذلك.
وقال عبد السلام حازماً:
- لا أحب أن تكثر الأقاويل إذا أسست على باطل.
وقالت تبدل مجرى الحديث :
- وبماذا أسر إليك الباجوري في شأن الأوضاع الحالية؟ أعلم أنك من خاصته المقربين، وحواريه المخلصين.
وقال الشيخ مأخوذاً :
- لقد قال لنا قولاً عجباً، ذلك أنه كثيراً ما تأتيه الرؤى التي تجلي له الغوامض من المسائل، وقد ذكر لنا أنه أبصر في منامه الأخير عباساً يصارع الغرق في مياه النيل حتى خمدت أنفاسه، وها هم الناس يحتشدون على ضفتي النهر دون أن يغامر منهم واحد بإنقاذه، وقال: لعل ذلك جزاءً عدلاً لأقباط أمر هو بإغراقهم فعلاً في نهر النيل، لأنهم فشلوا في تعليم المسلمين إدارة الدفاتر، وتدريبهم على الأعمال الحسابية، في أثناء مهلة الإحلال الوظيفي التي أريد بها إقصاء كل قبطي عن دوايين الدولة. وقال أيضاً: لا يحقرن أحد منكم المنامات وما فيها من رسائل خافية، واستشهد برؤية محمد علي لنفسه في منامه المعروف وهو يشرب ماء النيل، وولايته لمصر بعد ذلك التي امتدت لأكثر من أربعين عاماً، وكذا بقصة النبي يوسف وإخوته في القرآن.
وقالت تسأله :

- وماذا عني؟
وقال الآخر وهو يتأهب للوضوء فيشمر ساعديه:
- ولقد قال لي عنك في ختام حديثه: دعها تغني ما دامت تلتزم الحشمة، وإن من الغناء ما يهذب دخائل النفوس! وقال أيضاً بأنه ما كان دين الإسلام - وهو دين الأذان - لينكر سماع الغناء ويحكم بكراهته!
وتهللت ساكنة فقال عبد السلام لما انتهى من الوضوء:
- ينتمي معلمي الباجوري فقهياً إلى مدرسة الرأي في العراق، ولأجل ذلك يذهب إلى تحكيم العقل أولاً.
وهم الأب بالانصراف فحينئذ قال وصوته يتحرق خوفاً ملتاعاً:
- ضعي البخور والمسك، اغتسلي بماء الورد، لن أوصيك بالمعوذتين، ولولا فرط شواغلي بالإسكندرية ما غبت عنك قط، وإنها لأيام عامرة بخطوب لا يعلم مداها إلا الله..
وحدق إليها مستغرقاً، وأمسك بكفها بين إبهامه وسبابته، وقال قاصداً موجة الكوليرا الأخيرة التي لاح شبحها في يولية 1850م، فلا تزال تصيب أهل المحروسة والأقاليم:
- والكوليرا! فلندعوا الله أن يردها عن ديارنا، كما ردها عنا، في يوليو 1831م، وفي يونيو 1848م! والمكروهات مهما بلغت من البأس فإنها لا تورث المؤمن تطيراً، ولا تسوق خيالاته إلى الارتعاد، لأن قلبه عامر باليقين الإلهي!
ووقف مدة يدعو لها ويستودعها عناية السماوات، وشكرت له وصاياه وحرصه عليها، فلم يكد عنها ينصرف حتى دق الباب دقاً عنيفاً خالت أن وراءه أمراً ذو خطر، وفتحت الباب فوجدت أمامها عزيزاً يقول مرتاعاً:

- قتلوه! قتل المتآمرون مولاي عباساً بلا ذنب ولا جريرة!
أخفقت في حمايته وفررت من أذاهم كأنني الرعديد !
وجاوزت المفاجأة كل احتمال، فأجلسته ساكنة تستفسر منه عما هنالك:
- ماذا جرى يا عزيز؟ ولا أريد إلا الحقيقة.
وقال الآخر منهكاً :
- دبرت المؤامرة في جنح الظلام مخافة العيون، عباس ينام في حراسة اثنين من مماليكه، وبالأمس طلب مني اليقظة والحذر،.. لعباس مماليكه الذين اصطفاهم، اتخذ منهم خواص خدمه، وأغدق عليهم الرتب على غير كفاءة يستحقونها، وقد حاز أكثرهم رتبة قائمقام، انظري كيف زرع الأشواك بيديه؟.. أساء حسين بك الصغير معاملتهم، واتخذوا هم من حداثته مغمز الأقاويل،.. اشتكاهم حسين بك إلى مولاي فأمر بجلدهم، وتجريدهم من ثيابهم العسكرية، وألبسهم الثياب الخشنة، وأرسلهم إلى اصطبلاته لخدمة الخيل، وبالغ في إنزال العقوبة بهم كعادته حين يريد.
ولاحظت ساكنة أن عزيزاً يأخذ شهيقاً طويلاً، ثم لا يكاد يزفر، وجاءت إليه بقُلّة الماء، فاستتبع حديثاً لما ابتلع منها رشفة أو رشفتين:
- كبر على مصطفى باشا أمين الخزانة ما جرى للمماليك، والتمس من أحمد باشا يكن ومن إبراهيم باشا الألفي أن يتوسطا له عند مولاي للعفو عنهم، وذهب مولاي إلى قصر بنها صحبة الأخيرين، ولقد أتساءل: أي عدل أن يقتل الرجل في المكان الذي أشاده بنفسه؟.. ومهما يكن فقد أجاب ملتمسهما، وعفا عن

المماليك، وردهم إلى مناصبهم،.. آه، ياليته لم يفعل! أضمروا له الفتك بعد الضغينة، أتراهم الثعالب؟ جاءوا إلى القصر سراً، دلفوا إلى حجرة الوالي قهراً، حاولت منعهم مثلما حاول مولاي ولكنهم تكاثروا علينا، تواطئ غلاميه على الفتك به مع القتلة الذين أوعزوا لهما بعدئذ بالهرب فهربا.
ولم يكن عزيز يأخذ يتمالك نفسه حيناً إلا ويغلبه الذعر، وظنته ساكنة على حافة البكاء أو الانهيار، فقالت :
- وماذا يجري من تدبير لمواراة تبعات تلك الفاجعة الشنعاء؟
وقال جاثم الصدر:
- ما أعرفه أنه يجري إخفاء الخبر حتى حين إتمام نقل جثة مولاي إلى القاهرة ووصولها في عربة إلى قصره بالحلمية.
وقالت منفعلة :
- إن أحمد باشا يكن وزير الحربية، وإبراهيم باشا الألفي محافظ العاصمة، هما من الأقرباء الأوفياء الباقين للعرش الآن، ولكن لا ريب أن الفزع قد ذهلهما عن التصرف السديد، ولم يبق من المخلصين إلاك. يجدر بك أن تكون في القصر تدبر الأمر لا هنا.
وأجاب خفيض الكتفين :
- لشد ما أخشى المساءلة! ولقد يؤدي ظهوري في القصر إلى محاكمتي ومقتلي! لابد أن يتحمل وذر الفجيعة واحد، وذلك مأثمي! وغداً تضرب الفوضى أطنابها فلا يعود للحق نصير.
وخفض رأسه وقال :
- ما أسهل أن تلصق بي تهمة التقصير عن حماية الوالي فأذهب هباءً منثوراً! ولمثل ذلك في التاريخ المتمدين سوابق

ليس الآن مقام ذكرها، وإن تغرق السفينة بحث الناس عن أهون الأثقال شأناً وألقوا بها.
وقالت تزدري ريقها :
- وماذا يعني ذلك؟
وقال الآخر في حرارة، متموضعاً عند مركز الحجرة:
- جئت لأودعك وداعاً لعله لا يقدر لنا لقاء بعده، ولأقول، إني في فلك محبتي لك من الهائمين، الحُوَّم، ولكنه شأن المقادير إذا قضت، ومشيئة المقادير قاهرة، غالبة..
ولم تستطع ساكنة صبراً فتولت عنه، وطفقت في موقعها البعيد تجيش بالبكاء، وتحرك الدمع في عيني عزيز لما رآها وقال:
- ولقد أبيت ليلتي هنا، ثم أنسل غداً في العشية خفية، وليقضِ الله بعدئذ أمراً كان مفعولاً.. ولسوف يكون من واجبي أنْ أتحاشى قطاع الطرق ثم الباحثين عني من طرف الحكومة !
واقترب منها يقول :
- لم البكاء ؟! وقد جمعت بيننا الأقدار، وفرقت بيننا، وما عساها إلا أن تعيد الكرّة بغير الفراق يوماً؟ ولسوف أذكرك مهما باعدت بيننا الآماد ذكر الحافظين المخلصين، ولتنشدي لنا عن الشوق إنشاداً يذهب عنا الحسرات.
ونظرت له تغالب أساها وقالت :
- أأنشد الشوق كله أم من الشوق اختصر؟
وتهالك عزيز على الأرض يسمعها، جالساً القرفصاء، وكان جسده نحيلاً كانما قدّ من عود قصب، فقالت هي*:

لا تحسبوني في الهوى متصنعاً ... في حب من أهواه لست بمسرف
لا تنكروا شغفي بما يرضى وإن ... هو بالوصال عليّ لم يتعطف

لو أسمعوا يعقوب ذكر ملاحة    في وجهه نسي الجمال اليوسفي
وعلى تفنن واصفيه لحسنه    يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وأحال الغناء حالهم إلى رضاء عجيب، وأيقظ في نفسيهما الرغبة في الحياة والقناعة بصيرورتها، وطلب عزيز من ساكنة الزيادة، فمكثا الليل بطوله في غناء وتسامر لا ينقطعان.
على أن عزيزاً - وهو في غمرة نشوته - لم يكن يسيراً عليه أن ينفصل وجدانه عما عاشه وذاق مراراته، فبين الحين والحين يقول:
- نازلي أفندي، كبرى بنات محمد علي! لعلها ضالعة في تدبير المؤامرة التي أودت بحياة مولاي، ولا يخفى عن العالمين ببواطن الأمور أن عباساً أراد قتلها وكاد يظفر بمراده، لولا أن أهل قصرها نجحوا في تهريبها قبل أن يحين الأجل، فماذا يمنعها من أن ترد له الصاع صاعين؟
وتذكر له ساكنة نادرة تسري عنه:
- نازلي هانم! وإنها لامرأة مغضوب عليها، يحكى أن ليلة زفافها إلى محمد بك الدفتردار - قبل أربعين عاماً بالضبط من يومنا هذا - قد كانت وسط الصخب وإطلاق المدافع وإنشاد المغاني في قصر النيل، وبينما يمر موكبها التعيس في شوارع وسط القاهرة، حدث أن تكاثفت الغيوم، وهطل المطر، وابتل الرجال والنساء، وتعثرت الحمير، وتلفت الزينات.
وتابعت بعد أن قدمت إليه الشربات، والشبك الطويل، والقهوة في فناجينها، فزهد فيهم جميعاً:

- وحتى إذا وصلت إلى دار إقامتها (تريد نازلي هانم، المعروفة بالأميرة زهرة باشا) صفت السماوات، وفرغت خزائنها، وخلت من السحائب، وإن ذلك في ظني من الآيات السماوية الجلية على استطارة شرها وسوء طبعها!

ويقول مصعوقاً:

- زينب بنت محمد علي هي الأخرى! لعلها تورطت في دماء الرجل! وقد دعا حرمان مولاي عباس أسرة محمد علي من ميراث جدهم إلى تكتلهم ضده، إن مبرره في هذا أن جده لم يملك ملكاً شخصياً يورث، وإنما حاز حق التصرف في أملاك الدولة، وذلك الذي لم يرض قوماً استحبوا حياة الدعة وألفوها.

ثم يقول مدهوشاً :

- في سنواته الأخيرة (يريد عباس) غلبت عليه الأثرة، وقرب منه الأدنياء والجهلة، والمماليك لا عهد لهم ولا ذمة.

ثم ما يلبث يستحيل الدهش ندماً، فيقول منكس الرأس:

- أذكر - مما بلغني خبره - أن المدعوين، عنبر آغا، وعيسى آغا، قد أنقذا السلطان العثماني محمود الثاني، وقتما كان ولياً للعهد من حيث تولا تهريبه أثناء هجوم المتمردين على القصر، أما أنا فلا أستحق إلا الإعدام على تقصيري.

وحين اضجعت الشمس وحلت ساعة الرحيل، قال وقلبه ساحة أحزان وأشجان :

- ولقد آوي إلى هنا ذات يوم فيه تنجلي الحقائق، وفيه يجتمع الناس !

وهنا مضى، ماراً بالحوش والمنادر، إلى الباب الحديدي، فحنى هامته ليجتاز المدخل، ثم غاب ظله.

---

وتحركت ساكنة إلى المشربية الخشبية، فقالت تتبع حركته في فضاء الشارع :

- وإني في انتظاري أتحرق على لهائب الأشواق.

## 8

وتولى الولاية بعد عباس عمه سعيد، أصغر أولاد محمد علي، واستبشر بقدومه الناس وقال قائل منهم: "مهما يكن من أمره فلا يمكن أن يكون أسوأ حالاً من عباس."، وذات يوم جاءت الضامنة نعيمة إلى ساكنة تقول:

- أبشري! والخبر الذي أزفه إليك من شأنه أن يبدل دنياك من حال إلى حال. فبينما كنت صحبة والينا الجديد طلب إليَّ الرجل نُبذة عن أحوال المغاني وتاريخهم، ومن دأب الوالي أول عهده أن يتعرف على أحوال الطوائف من أفواه المعنيين أنفسهم عن قصد أن يتحسس مواقع قدميه، فما كان مني إلا أن ذكرت له القديم من أمر مغني طائفتنا وبدأت بالمغاني المماليك من أمثال: عبد العزيز الحفني، وخديجة الرحابية، مروراً بخوبي العواد، وعبد علي العواد، وحتى أصيل القلعية، والريسة خديجة. ولم يكن منه -على حسن إنصاته لي- إلا أن عبس وبسر، وقال: "إني لأكره المماليك كراهية تشمل كل ما يصح أن ينسب إليهم، فابدأي منذ تولى العزيز محمد علي."، ولبيت أمره، وبدأت بسيرتك التي هش لها وبش، وهنالك لمست في عينيه رضاءً دفيناً.

وقالت ساكنة في فتور:

- وما الجديد في هذا؟ وقد نالني من ذلك الفضول شيء من طرف عباس قبل أن تعاجله المنية، ويوافيه الأجل.

وقالت نعيمة متكلفة إظهار الخيبة:

- إن الفارق بين عباس وبين سعيد في عاطفتهما نحوك، هو نفسه الفارق بين الفضول وبين الغرام. ولقد طلب مني مولاي أن يراك بُعيد أن ينتهي اجتماعه المنتظر بالإسكندرية إلى صديقه المدعو فرديناند ديليسبس حيث سيجري التشاور في شأن مشروع يخصهما. انظري كيف يوليك الأولوية من اهتمامه!

وقالت ساكنة باهتة:

- ليس في قلبي متسع للأهواء.

وقالت نعيمة دهشة :

- ألأجل عزيز ترفضين الوالي؟

وقالت ساكنة:

- لن أتخذ من عيني الوالي سبباً للسعي إليه. ثم إن الطريق إليه محفوف بغيرة نسوة القصر وأذاهن.

وقالت نعيمة:

- وما الضير في ذلك؟ والعين تشي بما يجول في الفؤاد. ثم ما عسى حريم القصر أن يفعلن لصد الوالي إذا قرر، وهن حياله لا شيء؟ ومعرفتي بأنجي هانم وملك برهانم وسواهما من أزواجه ومستولداته تدلني على سماحتهن وخلوهن من الأنفة الفارغة مما يعاب على نسوة عباس.

ونظرت لها ساكنة نظرة محايدة وقالت:

- أخبريني عن طباعه أولاً.

وقالت الضامنة منشرحة:

- فيه شيء من الخجل، صريح اللسان مع ذلك، سليم القصد، لا يعيبه إلا كثرة تردده وغضبه. ولعل الأهم من ذلك كله: لا ينظر

للمصريين - من أشباهنا - نظرة الفوقية، ولا يعاملهم معاملة الرعية، فلا يضاهيه في ذلك من نسل محمد علي إلا المرحوم إبراهيم بك، ومن ثم لن يأنف مصاهرتهن، فيما أتخيل.
وقالت ساكنة :
- وعدني عزيز بالعودة حين تنجلي الحقائق ويجتمع الناس. كيف لي أن أخذله لدى أول منعطف؟
وقالت نعيمة هازئة:
- وعلى ذلك لن يعود أبداً. وإنما رهن عودته بتحقق هذين المبتغين لعلمه باستحالتهما. هل تعلمين أين استقر سعيه في منفاه الجديد؟ ولقد يُقبض عليه فيورده الموقعون به موارد الهلكات.
وقالت ساكنة:
- أعجب بانقلابك عليه! ولقد كنت غير بعيد تعدين لي مآثره واليوم تتوقعين هلاكه في هزو مريب!
وقالت نعيمة:
- وإنما ابتغيت صالحك في الحالين. بالأمس أوردت لك حقيقته، واليوم أحاول أن أجنبك اتباع السراب.
واستتبعت حديثها في رجاء:
- غاية ما في الأمر أني أريد منك أن تمسكي بالمعدن وهو حامٍ. وشأن الوالي أول عهده بالحكم ليس كشأنه لما يستتب له الحال، وبين هذا وذاك لا أستبعد أن يذهب شغفه بك أدراج الرياح. والهيام له أثر شديد متقلب كأمواج بحر عباب.
وطفقت ساكنة تبث نعيمة هواجسها في إصرار:

- قلبي يحدثني بأن عاطفة سعيد نحوي لا تزيد عن كونها انجذاباً يفوق الفضول ويقصر عن الشغف، ولقد أجد من العبث أن تصبو امرأة إلى عالي الأوهام بينما هي غارقة في حمأة الأرض، وشهرتي - ومن قبلها موهبتي- لا تعني أن أجاوز حقيقة الوقائع ثم فوراق المكانة بيننا.
وهنالك انطلق في الفضاء دوي المدافع يصك الآذان، فقالت نعيمة :
- ها قد أُعلن اعتلاء سعيد العرش! بينما نحن نتجادل فيما لا نفع فيه !
وقالت ساكنة تماطل :
- ألم يسع جماعة من أنصار عباس - وعلى رأسهم إبراهيم باشا الألفي -عبثاً إلى أن يجعلوا الحكم لإلهامي باشا ويمنعوا العرش عن سعيد؟ فماذا يجرى يا ترى؟ أليس يستقيم أن ننتظر حيناً حتى نرى لمن الغلبة؟ ولنا في إتفاق العوَّادة عبرة حين قدمتها الضامنة في زمنها إلى بيت السلطان فتسابق ثلاثة من أخوة السلاطين، هم فيما أذكر: الصالح إسماعيل، وشعبان، وحاجي، على طلبها. وذلك ما أشعل فتيل الغيرة بينهم، وأيقظ الأحقاد المكتومة.
وقالت نعيمة :
- يا لها من حجة واهية تتذرعين بها! وما أعرفه أن محافظ الإسكندرية إسماعيل سليم باشا قد وقف موقفاً أدار به دفة الأمور إلى غير رجعة من حيث أعادها إلى نصابها السليم، ذلك أن النظام القديم - قبل أن يغيره عباس لغرض قصر الحكم على ذريته - يقضي بأن يورث العرش لأكبر أنجال محمد علي

وهو سعيد، وقد نقل إسماعيل إلى سعيد ما يحاك ضده فاستبق الخطى إلى كرسي الولاية. إن صفحة قديمة من النزاع بين أفراد الأسرة قد طوت، وأما دعاة الفتنة والبغي فلسوف تدور عليهم الدوائر.

وبدا أن ساكنة قد انتهت من سرد هواجسها، فقالت مقتضبة:

- وأين سعيد الآن مما يجري؟

وقالت نعيمة :

- إنه يسارع إلى القلعة ليمسك بزمام الحكم وينهض بأعبائه الجسام، صدقاً وحقاً، وأما دوي المدافع فأحسبه من سبيل المبادرة إلى الاحتفاء في غير أوانه، وقطع الطريق على المتربصين من أمثال إبراهيم باشا الألفي ومن شابهه.

وقالت ساكنة :

- ومع الاحتفاء يأتي دور المغاني من أمثالنا، ولسوف تستلزم حفلة الجلوس وافراً من الحناجر الشادية والأيادي العاملة.

وقالت نعيمة :

- إذن فلتعدي نفسك لها أحسن إعداد! ولسوف أزكيك قبل غيرك. لا بأس بأن تتلقني من الأرمن فنون الغواية إذا عدمت منها قريحتك.

وقالت ساكنة كأنها تتمثل خيال أبيها الشيخ عبد السلام أمامها :

- ونشأتي بين أحضان أسرة التدين طبعها وديدنها تجعلني أربأ بنفسي عن هذا. ولكن حبي للغناء يصيرني كالتي تتأرجح بين النقيضين، وإنه لا يجتمع في نفس من حفظت في صباها القرآن نزوع إلى النزوات إلا من سبيل الجنون.

وقالت نعيمة:

- يفترض بالدين من حيث هو أن يكون سبباً لمسرة الناس كافة، والسرور يقتضي زواجك بالوالي، واقترابي منك ومنه!
وحدجت ساكنة بنظرة جامدة، آمرة، وقالت :
- لسوف تقضين جل لياليك الآتية في قصور سعيد، ولتخلعي قناع التحفظ والخجل، ولتدع الأمور تأخذ مجراها المأمول. أيا بنيتي: اقصدي إلى وكالة العنبريين لأجل العطور، وإلى وكالات القماش لأجل الثياب، الكتانية والحريرية. واعلمي أنه قد غيب الموت عباساً وأقصت الصدف عزيزاً وجاءت المشيئة الربانية بالمغنم الأعظم سعيد، كمثل ثمرة قد هوت إلى يديك علي غير انتظار، فحمداً للمُنعم على عطيته! أما بلغك قول العلوي الأصبهاني؟:

دعْ حبّ أول من كلفتَ بحبّه          ما الحبّ إلا للحبيبِ الآخرِ
ما قدْ تولى لا ارتجاعَ لطيبه          هل غائب اللذات مثل الحاضرِ

ومكثت ساكنة أياماً لم تأنس بالنوم، تفكر: هل عصفت نعيمة بمعاني الأشياء؟ كيف أرقت بالها وأرغمتها على الخضوع؟ لقد ناء وعيها بما لا يحتمل، وعزيز ذكرى تضوي وتحرق، وسعيد يريد لها أن تتقدم، أن تقطع سبيلها إليه متناسية الماضي والحاضر، أن ترتقي درجاً مكللاً بالزهور والخصب، ولسوف تشرئب لها الأعناق إن فعلت. هل فقدت بصيرتها؟ لها أن تعلق الآمال عالياً، في القصر، ولها أن تبقى قدماً على الأرض، لها أن تتمزق، أن تنزوي، أن تتلاشى.

واهتدت المرأة إلى أن تلبي دعوة سعيد إلى قصر الحرم، ولكم دهشت لرؤية الرجل يستقبلها بنفسه على أبوابه يقول :
- شيده أبي المرحوم محمد علي ليقطن فيه مع أسرته وحريمه، لا تخشي اتساعه المحير.
وارتجفت لدى رؤية الوالي، وقد عَنَّ لها الرجل من السمنة فوق ما يظهر في الرسوم والصور، ولاحت تجاعيد وجهه تحت أضواء النهار محددة المعالم، فقالت:
- صدقت يا مولاي! وإنه (تريد القصر) من المآثر الخديوية التي يطيب لنا نحن الرعية ذكرها والتباهي بها، ومثلها في الزراعة والصناعة والعمران قد ألحق البلاد المصرية إلى عهد المدنية.
وتقدم سعيد إلى الداخل الظليل، فسار في إثره ثلة من رجالات الدولة والقصر، وإنه لتبدو عليهم أجمعين مخايل الوقار والنعمة، وقال وقد أدار ظهره لها :
- والغناء؟ أليس ينسب إلى المدنية أيضاً ؟
واستبقت القول، وكانت تحرص على أن تقطع بإظهار الاحترام الزائد سبيل التودد إليها :
- والغناء إذا حسن آية التقدم في الحضارة ووجهها المستأنس، وأخال أن بناة قصرنا هذا قد استعانوا بالغناء على مشقة الإشادة ورفع الأثقال، فتم لهم بممزاجة اللهو مع العمل - بعد عون الله وتوجيه ذوي البصيرة من أهل الحكم والهندسة - تشييد أجنحته الثلاثة، وحدائقه وأفنيته الوسيعة. وفي التاريخ المصري القديم: أنفيون بن جوبيتر بنى أسوار طيبة المجيدة على أنغام القيثارة التي كان يعزف عليها.

وقال سعيد في هداوة، تكتنفه الظلال الكثيفة، ويحوطه الأعوان:
- إن الضامنة قد أطلعتني على موجز سيرتك الطيبة التي جعلت لك في قلوب المصريين مكاناً مستوطناً، ولشد ما لفت انتباهي منها نشأتك في نواحي الإسكندرية، ثم إقامتك فيها، مثلي، ولقد يحملني جم عشقي لتلك العجيبة الساحلية على أن أفرغ الحب على أهلها أجمعين !
وتحسس شنبه المفتول، وكان يجتهد في أن يحتفظ بمهابة الوالي دون أن تجرفه عواطفه إلى إبداء الحب، وقال وهو يقرأ من ورقة جيئت له محمولة على أذرع الرجال :
- "في زمن العزيز محمد علي تحققت لك بشائر الشهرة بغناء الأكشاك والموالد، وفي حياة المرحوم إبراهيم جرى اصطفاؤك لإحياء حفل ابنه في القصر، وأما عباس، عفا الله عنه، فتقرر لك في عهده جراية شهرية."، ماذا تظنين أني فاعل بعد هذا؟ ولسوف أضع الأمور على الخط المستقيم، ولا ريب.
واستدار عن الورقة، ونظر إليها وقال :
- أحب جدي - عليه الرحمة - التبغ والمعسل، وأما إبراهيم فتركز شغفه في بطولته الحربية، وعباس كان فيه ميل إلى ركوب الخيل، وأما أنا فأجد هواي في الجمال عموماً، وفي لحظات خلوتي على ندرتها وشحها أنشد من أشعار الأزمان الفائتة :

لك في قلبي المكان المصون    كل لوم على فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلا    فيك والصبر عنك ما لا يكون

أما ترين أن حنجرتي تجيد تطويع النغم؟ أم إنه الظن؟

وحارت ساكنة جواباً، وكان صوته مخشوشناً، فقالت :
- أنت تغني جيداً لأنك مولاي!
وقهقه سعيد ومن ورائه الأعوان قهقهة الببغاء، وقال الأول :
- وما رأيك في معاني الكلام؟
وقالت ساكنة متحررة كأنما أذابت الضحكات جبل الثلج الضخم:
- والتغني برطب الكلام لا يغني ولا يسمن إذا عدم المنشد الصوت الحسن والأداء المجيد، ولعلي أفضل أن أغني في حضرة الأكابر من أمثالكم ما انتظم من الأبيات في إحكام، من ذلك: ما جادت به قريحة الشجاع جبريل بن الأواني، وهو مغنٍ موصوف بالحذق والإجادة في صنعتنا، ينتمي إلى الأزمان الوالية أيضاً :

وما عسى يدرك المشتاق من وطر.. إذا بكى الرَّبع والأحباب قد بانوا
كانوا معاني المغاني، والمنازل أم .. وات إذا لم يكن فيهن سكان
لله كم قمرات لُبِّي بجواك أقمـ.. اروكم غازلتني فيك غزلان
وليلة بات يجلو الراح من يده.. فيها أغن خفيف الروح جذلان

وحتى إذا انصرفت إلى عوام المصريين اصطفيت العامي والميسر، لأني أشفق على الأميين ومن شاكلهم ألا يكون لهم غذاء ينتفعون به.
وكان يرنو إليها معجباً فلما انتهت صفق بأصابعه دون راحته، وقال :
- ليت للرجال في بلداننا المبتلاة مثل عقلك الراجح!

---

وأبدى أعوان سعيد غضبهم صامتين، وحانت منهم نظرات متبادلة في تذمر. عساهم يضمرون الوشاية به لدى أنجي هانم وملك برهانم انتقاماً لأنفسهم؟ وقد درجوا قبل هذا على أن يفتحوا أعينهم، واسعة، للدلالة على فهمهم، وعلى هز رءوسهم، مراراً، للإشارة إلى استحسانهم!

## 9

توطدت صلة ساكنة بالوالي سعيد وبالقصر، وصار من شائع الأحاديث ما يقال عن ذلك الحب المتقد بين أشهر المغاني في البلاد وبين الوالي، ونزلت به الألسنة إلى النواصي والنوادي والأسواق نزولاً ذميماً. فمن الناس من يتناجون فيما بينهم سراً:"حتى الوالي المبجل يزيغ عن الوفاء لزوجيه! وإنما الناس سواسية في ضعفهم ونزواتهم. وليس لهم إلا ما نضفيه عليهم من المهابة والتوقير، وأين الشرف؟ وساكنة اختارت لنفسها سبيل الغواية حتى استأثرت بقلبه المنهك !". ومثل تلك النجوى قد بلغت أصداؤوها حريم الوالي فاشططن غيظاً. ونقمت أنجي هانم على سعيد صمته، فلما كاشفته بما يتردد على الألسنة، قال:

- خير للشائعات أن تترك حتى يبتلعها النسيان. وذاكرة العوام ثلاثة أيام، كما قيل في المأثور.

ولم تقنع إنجي هانم بجواب سعيد، فقالت :

- وكم من ألسنة عابثة وقلوب مريضة لا ترتدع إلا بالقهر! وصولجان الإمارة في يدك له تأثير السحر، فلم لا تستخدمه؟ ولو نكلت بواحد لاختبأ البقية في جحور الصمت. وحاذر التهاون فتستحيل أحدوثة يلوكها الأراذل والسوقة.

ولم يلق سعيد لها بالاً. وآية ذلك أن أقام مأدبة بقصر النيل دعا إليها ساكنة (من المغاني) والعلماء والرؤوساء الروحانيين وأعضاء العائلة الحاكمة، وأعاظم رجال الحكومة من الملكيين

والعسكريين. وتناول معهم جميعاً الطعام في سرادق كبير، وقال مرتجلاً*:
- أيها الإخوان.. إني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ فوجدته مستعبداً لغيره من أهل الأرض. فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والآشوريين والفرس وحتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان، هذا قبل الإسلام. وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب. ومن الترك، والأكراد والشركس. وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن بونابرت.
وحيث إني أعتبر نفسي مصرياً فوجب عليَّ أن أربي أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغني بنفسه عن الأجانب. وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من الفكر إلى العمل.".

وكانت ساكنة تسمع وترى، فتهللت فرحاً واستبشاراً، ومثلها فعل المصريون الحاضرون، أما المدعوون من الأمراء والعظماء فقد أسودت وجوههم. وقالت لسعيد بُعيد انتهاء الحفل:
- ولكم وددت أن تحفظ عيون التاريخ اجتماعنا هذا! ولقد بلغ تأثري بخطبتك يا مولاي أن ذرفت عيناي دمعاً هتوناً واقشعر بدني لها، ثم أشفقت من أن يصير ما جرى - فكنا عليه شهوداً - نسياً منسياً.
وأجاب منفعلاً مباهياً:

- صدقت! ولقد أسألك: أتدرين لم رفضت استخدام حجارة الأهرام في بناء القناطر الخيرية رفضاً باتاً لا يبلغه جدال ولا نزاع؟ وأنا في ذلك أأبى ما قبل به من قبلي محمد علي وعباس. إنها عيون التاريخ التي تتحدثين عنها، ثم عاطفة المجد والخلود النابعة عنها. فأي خزي يتحمله المرء إذا ذهب في التاريخ هادماً للأهرام؟
ونظر لها في عطف وقال :
- ولقد يكتب عنك التاريخ ذات يوم يجيء فيه أوان التأريخ: ساكنة، مغنية القصور والشعب! وقد يُكتب أكثر من ذلك!
واستبطنت ساكنة أن الرجل - فيما بدا لها من عاطفته الملتاعة - يستمزجها الرأي في شأن الزواج بها من حيث يفاتحها بالأمر من طريق التورية، فدق قلبها دقاً باعثه الخوف، وقالت كالتي تمشي فوق الأشواك متحسبة الجواب:
- ليس بعد الاقتراب من الوالي شرف تطمح إليه امرأة! وإنه يكفيني أن يذكر لي صلتي بالقصر، ودوري في إدامة الحياة والمسرة فيه.
والتفت إلى المائدة، لايريد أن يبدو ملحاحاً، وقال وهو يهم بأكل المكرونة :
- ولكم أخشى على نفسي السمنة! ولقد أوصاني أبي المرحوم - مما أوصاني - بالسير والحركة، وتعلم أصول التناول وآدابه، ولكن المكرونة - ومثلها من الطعام الدسم - لها بريق تنجذب إليه نفسي انجذاباً عظيماً، وإنها لتتخايل لي مرات كمثل رشفة الماء في حر مستعر فأقبل عليها إقبال الظمآن.
ولاحظ قوام ساكنة الممشوق، فقال :

- وأنت كيف تتغلبين على شهوة الطعام؟
وقالت:
- ليس بعد نصيحة العزيز محمد علي قول يضاف يا مولاي.
وجاء من الأعوان من همس في أذن سعيد، فلما انتهى قالت ساكنة وكانت اتخذت مهلة المناوشة زمناً للتفكير في الصياغة:
- هلا سمحتم لي بأن أتدخل فيما لا يعنيني: فما مرام حضرتكم من تلك الخطبة التي أظهرتهم بها جم عطفكم على الأمة المصرية والتي سمعناها فحركت في العيون الدموع واقشعرت لها الفرائص والأبدان؟ أعني ولا تعتبروا فضولي تزيداً: كيف عساها تستحيل إجراءات واقعة بعد أن عهدناها خطاباً حميماً؟
وأجاب سعيد في سرور من أعجبه إطالة الحديث:
- انظري إلى حال الجيش: كيف أحالته الجهود المبذولة من نقمة إلى نعمة، ثم إلى اللائحة السعيدية التي سوف نصدرها فنسقط بها عن الفلاحين ما وضع على ظهورهم من أوزار الضرائب المتأخرة،.. بأي حق يمنعون من تملك أراضيهم كأنهم السخرة؟ وأما اللغة العربية فأمست لغة المعاملات في الحكومة.
وقال متعمقاً كأنما يسبر أغوار أمر غامض:
- ومخاطبة العواطف لا تكون إلا لغرض شحذ الهمم لا خلق الأوهام. والظلال لا تستقيم إذا كانت العيدان عوجاً.
ولبت الشمس نداء الطبيعة فغابت عن الأفق، ونظر سعيد إلي نجمة متلألأة نظرة الشارد، وقال:
- إن أسرتي تتهمني بالغفلة والبلاهة! والأتراك يضمرون لي شراً مستطيراً، ويقول قائل منهم: "أنى لك أن تعين المصريين

في مناصب الدولة المرموقة فيزاحموا طبقة الذوات؟ هل جن جنونك؟ أولم يكونوا منذ فجر الماضي عبيداً لا يجدون نصيراً؟" وفريق آخر منهم يلعب اللعبة التركية في أن آخذ حذري، ويصف لي جهنم المفروشة بالنوايا الحسنة.
وتابع كأنما أراد أن يزيح مصاعب الولاية إلى فضاء الغناء الرحيب فيبدد هموماً تعتريه :
- وكيف حالك مع الأتراك؟ هل يعجبون بغنائك؟
وقالت في وجل، إذ كان غناؤها - المحلى بالأسلوب الشرقي القديم والميسم الأندلسي - في حقيقته إلى الغناء التركي أقرب، ثم أن منهم من يناديها بساكنة بك معجباً بغنائها:
- نعم، يا مولاي. مع أن بهم عُجمة تحول دون فهم سليم.
وقال متحفزاً :
- وختمت الغشاوة على قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم! وأولئك قوم سكنوا أبراج العاج العالية وخالوا أنفسهم خلقاً فوق الآدميين. لماذا لا يتعلمون لغتنا مثلما نتعلم لغتهم؟ والمعنى هنا: أنهم لم ينظروا لنا يوماً كأنداد لهم، وتملكهم الصلف الذي أضل سعيهم وأذاغهم عن سبيل الرشاد. لا يزال ذكر محمد علي شوكة في الحلق، ولا عجب. أتذكرين يوماً تكالبت فيه الإمبراطورية الروسية والنمساوية وبروسيا والمملكة المتحدة - يوماً تكالب فيه هؤلاء جميعاً لأجل وقف ما أسموه بالأعمال العدوانية ضد الخلافة المزعومة؟ لقد شاءوا أن يبقوا الميت ميتاً، وتكاتفوا دون أن تنبثق روح جديدة في الشرق التعيس.
وقالت تخشى أن يحتدم النزاع على نحو يفضي إلى شبوب حرب بين التابع والمتبوع، يعيد بها التاريخ نفسه :

- لعل من الترك من لم تفسد فطرته من أولئك الذين يكثر أن أراهم في الحفلات يتسامرون، ويطربون للإنشاد.
وقال :
- ربما إذا نظرنا للناس من منظور الغناء لوجدناهم جميعاً أسوياء الفطرة، يمليون ميل العشب للنسمة اللطيفة! ولكن شأن الساسة أن يبحثوا عن مصالحهم بلا هوادة، ولو اضطرتهم الحاجة لخوض الحرب الضروس. والإنسانية ليست هدفاً يصبوا إليه أصحاب المصالح. وقد تقولين إني ألتمس منك الحضور لتراهم رأي العين يتضاحكون؟ وإني لا أزال أبقي جسور التواصل بيني وبينهم مكرهاً.
وشرب من كأسه شراباً بارداً، ثم نظر لها وقال كالذي خمدت ثورته :
- والتعميم هنا - وفي غير هنا - خطيئة تخل بميزان الحقائق والطبائع. هذا صحيح! ولكن المتحكم في جماعة - أي جماعة - يصبغها بلونه إذا كان قاتماً أو زاهياً، لأنها لو رأت فيما يذهب إليه تعارضاً مع معتقد أصيل لديها ما استتب له حال الحكم. والأوروبيون -وتحديداً الفرنسيون- أصحاب الحضارة، وإليهم يعزى جل منجزاتها الباهرة. والمشكل كما يتهيأ لي في الأتراك والشركس. لأنهم لا أرادوا خدمة بلادنا بحق، ولا هم تركوها وشأنها.
ولاحظ سعيد أن ساكنة قد أمضت زمناً واقفة، ثم هو أقحمها فيما لا تجيد صنعه أو تفهم خباياه من شؤون السياسة والجماعات، فأمرها بالقعود قبالته يقول:

- وقد أجد من المشتركات الكثيرة بين أمي عين الحياة وبينك ما يحملني على الاعتقاد في كونكما فرعين لعين الأصل. وإنه يليق بالمرأة أن تكون ممراحاً طروباً، شأنكما في هذا، فكم يضج الرجال في معترك حياتهم بما هو شاق عسير! وإني مثلاً لأصل فحمة الليل إلى بياض النهار في عمل لا ينقضي أبداً، وشواغل الولاية تحاصرني بغير منفذ، وأضيق الضيق كله بجهامة على الوجوه كأنها الزبد على البركة الآسنة. فإذا جاء ذكر الإسكندرية تذكرت أياماً خوالياً أتابع فيها شمس الأصيل وهي تنسحب فوق بحرها الشاسع. فيغلبني الحنين الذي يمسك بتلابيبي. وأكاد ألقي - لولا تهيب العواقب - بتركة الحكم التي أعيتني، ثم أقدر للعوام صفاء بالهم وتفرغهم لغيره من الأمور الميسورة.

وقالت حريصة على أن تصرف الحديث عن خصوصيته :

- وماذا يبقى للبلاد المصرية إذا تخلى ذوو البصيرة من مثلكم عن دورهم؟ ولسوف يعيث الفساد، وتستحيل البنايات خرائب مهجورة.

وقال:

- وماذا يفعل ذوو البصيرة إذا هم قلة نادرة؟ ولكي أقرب المعنى إليك: فما عساك تفعلين إذا أقبلت إلى عرس أو حفل فإذا بالحضور جميعهم من الصم؟

وقالت قاطعة:

- لسوف أنشد لأجل الإنشاد!

وتقدمت إنجي هانم وملك برهانم صحبة اثنين من الأعوان إلى سعيد، مزهوتين، وقال الرجل:

- وددت لو أمكنني أن أعرفكما إلى المغنية ساكنة! ولكنها في غير حاجة إلى تعريف.. وفي المختصر: إنها واحدة فذة في الغناء، ليس لها تعداد.
وقالت إنجي هانم وهي تتفحصها:
- صدقت! وقد اقتربت منك على نحو عظم شهرتها، فاتخذت من ثرثرة العوام سبيلاً إلى الانتشار السريع في الحانات والأسواق. ولعلها عمدت إلى ذلك عمداً. ولم لا تطمع في المزيد وقد وجدت الفرصة سانحة بعد خطبة ألقيتها هنا، زينت للمصريين فيها الآمال الكبار وقربتها إليهم؟!
وقالت ملك برهانم وعيناها جمرتان من الحسد:
- ومع الأيام يرحل الملوك من أسرتنا وتبقى هي لتقيم الصلات الجديدة إلى ما هو آت. فسبحان الذي جعلها حبلاً موصولاً!
وقال سعيد في حزم:
- دعا الغيرة فإنها منفرة!

---

*** الخطبة مقتبسة نصاً من كتاب مذكرات عرابي.**

## 10

قالت ساكنة لنعيمة:

- إن إنجي هانم وملك برهانم ليستا إلا امتداداً لحريم عباس، وهن جمعاوات يصدرن عن الكيد والمرارة، والأسوأ أنني صرت كالمعلقة فوق السحاب لا تلامس قدماي أرضاً، لقد حدا طول ترددي على القصور إلى استشعاري مزيداً من الشفقة على أبناء الشعب. وحين نسب سعيد الأفضال إلى الفرنسيين لم اجترئ على مصارحته بأن كل فرد هنا يلعن الفرنسيين. وأن أربعين ألفاً يعملون في قناة السويس عند حد المجاعة. ثم أنني بعد ذلك - وربما قبل ذلك - ألتقي بنفر منهم فإذا هم يستقبلونني استقبالاً مليئاً بالعواطف، بحق السماء كيف يبثونني شكواهم ثم أجبن عن التصريح بها؟ والبكوات يعاملونني على اعتبار أنني زوج الباشا المستقبلية. إن قلبي ممزق بين القصر وبين الشارع.

وقالت نعيمة في استخفاف:

- إذن فلتلقِ بقلبك في بحر النيل.

وتابعت ساكنة كأنها الشعلة:

- وفي الصبيحة آكل البلح وأشرب اللبن الرائب مع الفلاحين، حتى إذا حل الليل وجدتني على موائد الموسرين أشرب النبيذ وأتغذى على صنوف اللحوم. كيف يستقيم هذا؟ وقد يجيئني من يظهرني على قروح السلاسل حول عنقه من أثر عذابات نزلت به في نهاري، وفي ليلتي أشارك النجوى مع من يتواطئون

بالصمت وبالعمل على استبقاء أسس التعذيب والقهر، ثم أبادلهم البسمات قريرة العين راضية! أإلى مجالس الذكر والمآتم والجنائز أنتمي، أم إلى الجنان والروضة والأضواء الباهرة؟ وأول اليوم يربت المعوزون على كتفي ويقبلونني إلى حد أن طرفاً من عباءتي قد بهت، وآخره أتزلف إلى ذوي المكانة، فتستبدل الأدوار بيننا. هل استحالت ساكنة إلى زوجين؟!
وقالت نعيمة:
- رويدك! رويدك! وإنما أنت تعبرين الجسر بين الحياتين.
وقالت الأخرى كأنما تريد أن تنهي صراعاً عنيفاً بأن تجتر ذكرى دافئة :
- عزيز! جاءني في المنام، ليلة أمس، يحمل في يمناه وردة حمراء قانية، ثم يحثني على الصبر ريثما يعود من غيبته. لقد خلق غيابه ألماً غائراً وأوجد فراغاً شاغراً، ألم يبعث إليَّ برسالة ويستخدمك وسيطاً لها؟
وبدا الصمت على نعيمة، فطلبت ساكنة منها أن تقسم على الحقيقة، وطفقت تذكرها بويلات تنتظر الحانثين، وقالت نعيمة بعد تردد:
- وقد آليت على نفسي أن التزم الصدق ما أمكن. هاك الرسالة.
وتلقفت الرسالة بقلب حائر. وأخذت تقرأ: "وبعد، فقد رأيت أن استهل حديثي إليك بما هو عام، ذلك أن متاعبي مهما اشتددت لا تقاس بمتاعب البؤساء، وآلامي مهما احتدمت دون تعاستهم، وقد بلغني ما طرأ على أحوال القصر من بعدي، من وصول سعيد الابن الرابع في ترتيب أبناء محمد علي، وما صاحب ذلك من استبشار لدى أبناء البلاد المصرية من أقصاها إلى أقصاها.

ثم بلغني كيف انتكست مساعي الرجل بأن أغلق المدارس العليا مسوغاً للقرار بالأعذار الواهية، وكيف دفع بالألوف إلى هلاك محتوم يلقونه تنفيذاً لمشروع حفر القناة، بحثاً عن الأمجاد الزائفة. ولكم أسفت لما جرى لعلي باشا مبارك، ولعلي تمثلت نفسي في الرجل. أعني: من عزله عن ديوان المدارس وعن نظارة المهندسخانة إلى إلحاقه بالقوات المصرية وتجريده مما هو خليق به من التشريف. ولعلي كما أسلفت وجدت في صورته صورتي، واستلهمت من صلابته النادرة ما أعانني على تعبيد السبيل ومعاندة المصاعب والحوادث. ذلك أننا - أنا وهو - كانت لنا بالقصر صلة وثيقة من التأثير، ومع الأيام قُذف بنا إلى هوة سحيقة من الاغتراب.

ولكن ومع الأسف ساورني الخوف من أن يجري لك، مثلما جرى لي وله، ومع علمي بنظرة يوليها أهل الحكم للمغاني، تغاير نظرتهم لأهل الفكر والساسة. فمن المعلوم أن صاحب السلطان كراكب الأسد، يُغبط بموقعه، وهو أعلم بموضعه، ثم أن الوشاة - وما أكثرهم عدداً وأوطأهم طبعاً! - يتخذون من أذني الوالي وعاءً يصبون فيه المكذوب من الأخبار صباً، وحريم القصر أول الوشاة. فوددت لو أمكنني أن أوجه النصح إليك بأن تحتفظي بينك وبين سعيد بالمسافة التي تسلمك. وبالبون الذي يأمن جانبك.".

وتهالكت ساكنة على فرش فوق الأرض، ممدود بطول الحيطان، تواصل القراءة، في وقت كانت نعيمة على أريكة

مصنوعة من الطراز الإسلامبولي، ترخي ساقيها على مقعد غير مستوٍ السطح:"وإذا كنت أول حياتي شغوفاً بالأسفار، معتقداً في قول الشافعي:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه    وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

فإنني الآن أصدر عن قول أبو الحسين محمد بن جبير التكاني :

لا تغترب عن وطن.. واذكر تصاريف النوى.. أما ترى الغصن إذا ما فارق الأصل ذوى..!

وبعد أن أزمعت أمري على هجر الأحباب، وتزايدت همتي في السفر، في اليوم الذي شهد اغتيال مولاي عباس حلمي، فقد اتخذت من الصحراء سبيلاً، ونزلت بديار العربان في جوف الرمال، وذلك إبان القيظ. وأقمت ببعض المياه هناك ثلاثة ليالٍ، وأصابتني الحمى وخلت نفسي في عداد الموتى لولا الألطاف الإلاهية التي كتبت لي أجلاً غير الأجل. وسألتهم: كيف السبيل إلى الهرب؟ فأعروني دابة وخباءً ونصحوا لي بأن أصحبهم خفيفاً، وبأن أتبعهم إتباع الإبل للحادي بها.. ".

وقاطعت نعيمة:

- المأفون يعقد المقارنة المجحفة بين الأميرالاي علي باشا مبارك وبينه، هيهات أن تنطلي حيلته! ماذا قدم إلى الإنسانية إلا تقصيراً وخذلاناً؟ ثم أن مروياته المزعومة من النسيان أتت، وإلى النسيان تذهب!

وحثت ساكنة نعيمة على الصمت بحركة سبابتها، وتابعت في شديد الاهتمام: "ولفرط اشتياقي إليك فقد تمثلت في أيما امراة -

من نساء البدو المتلفعات بالسواد هنا ـ شيئاً يذكرني بك! وحتى لقد أوجس مني العربان بادئ الأمر خيفة، وظنوا بي الظنون، ومن عجب أنهم تعرفوا إليك لما أتيت على ذكر الاسم، وقال قائل منهم:"الغناء الجيد يتعشقه البادي والحاضر وهو فوق العصبيات.."، وما عرفته أن لهم في دنيا الغناء باع طويلة من حيث يستعينون بالنغم على القيظ الذي يلفح الوجوه بحره وشمسه اللاهبة، وإنهم يعايشونه معايشة التسليم غير ضاجرين به. وأذكر ولا أنسى أنني جلست رفقتهم أصفق وأقول:

أول ما نبدى بالقول.. صلوا على طه الرسول !

ثم أذكر ولن أنسى أني سمعت صوتك المشوب بالعاطفة يرن في الآفاق البعيدة وفي الآذان القريبة، من أين جاء؟ هل هو الوهم؟ لست أدري. وهكذا أنست بالصوت وبالصورة في غربتي! (وهنا اضطرب الخط حتى قوله) حتى انعسكت المرئيات، وتوالت الصعوبات، لنفاذ ما هو كائن في علمه، جل وعلا.".

وجدت نعيمة في حديثه إملالاً، وأحست مع هذا أن الرجل يكتسب أرضاً جديدة، وأن بناء من أحلام التملك تكون ساكنة جسراً فيه إلى قلب الوالي يكاد يستحيل رمالاً، قالت منفلتة :
ـ وحتى الشياطين لديها ما تقوله! ومعسول الكلام لا يقدم ولا يؤخر إذا ما كان المرء صاغراً لا يملك إلاه.
وتابعت ساكنة فيجذبها تيار الكلام عما عداه، حتى خالت نعيمة شبحاً :"ومهما يكن، فقد قصدت إلى مدينة دمشق الشام، وأما السبب فذكريات خضراء لما تفتأ تساورني عنها وعن أهلها، ثم

قول أبو الحسين بن جبير رحمه الله في ذكرها: وأما دمشق فهي جنة المشرق، ومطلع نورها المُشرق، وخاتمة بلاد الإسلام متى استقريناها، وعروس المدن التي اجتلبناها. قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين.. إلى آخره. ثم - وهو الأهم بين هذا كله - معرفتي بكراهية أهل الشام لإبراهيم بك لما كان حاكماً عاماً للبلاد السورية، وتلك الضغينة التي توارثها أهلوها لحكام الأسرة العلوية من بعده، وقد خبرتها عن كثب. وتفصيل ذلك ما عمدت إليه روسيا وبريطانيا والدولة العثمانية من تغذية القلاقل هناك إبان حكمه. ثم احتكاره لتجارة الحرير، وأخذه لضريبة الرؤوس، وتجريده للأهالي من العتاد ما أورثهم العناد... إلخ إلخ. ما يعني أني سأكون بين أناسها بمنأى عن الدسائس والألاعيب مأمون الجانب.

ولقد أدعوك إلى أن تشيعي بين الناس في مصر أني مت عطشاً، وبقت جثتي على ظهر حماري عبرة. عسى أن يصرف عني الخبر عيوناً تتربصني. ويطفئ الغل في الصدور، وينير البصائر.

هل تكتب لي نجاة؟ "لا أعرف".
واستقر الجواب في قلبها فزادها حيرة، وتلوت بالألم النفسي المرير في زواية الحجرة. قالت:
- ها قد بُهت لون الحياة وولى بهاؤها مدبراً. يحدثني عزيز من وراء سياج المجهول. لا أطيق سؤاله ثقلاً. ولا جوابه احتمالاً. الحسرة. لا أجد غير الحسرات. وفندق شبرد. سوف أقيم فيه

أياماً لأنسى ما جرى. يبدو لي بديعاً على بشاعته المعروفة. ماذا يفيد الغناء وسط كثبان الأسى؟ بماذا تنفع الشكوى إلى من يكتمها ولايرفعها؟ يقولون عني هنا أن مقدمي يجاور السعد! يتمسحون بي من سبيل التبرك. يتهافت عليَّ الأهالي لألقي نظرة على عروستهم أو لأزور منزلاً أو لأتحسس الماشية. والحقيقة على النقيض وإلا لماذا لازمتني الخيبات كالظل؟ الأهالي أيضاً تعساء. يضطهدم الأتراك. يستعبدهم الأكابر. يستغلهم الأوروبيون. الجميع يثيرون الشفقة. أنت أيضاً يا نعيمة، تريدين ذهب المعز. الجاه والسلطان والجنان. تنشرين القواصة* في الأزقة والحارات لتجمعي من المتهربين الضريبة. ثم تشتكين قطاع الطرق وإجحاف الوالي وقسوته. تخفين سوءاتك وراء قناع الزهد. تريدين مني نسيان عزيز. هكذا! وأما سعيد فيتقرب إليَّ، يبدو وجلاً، لا يغامر ولا يتلكأ. يخشى أن تهتز صورة الباشا في العيون الخائفة فتتضعضع ركائن العرش. لقد أقام الحكم على حقيقة الذعر.

واستتبعت حديثها بعد أن أطلت إلى النافذة وعادت إلى البهو كأنما تقذف بالحمم:

- تصنع النساء النوبيات هنا حصائر لأزواجهن. أبصرتهن عند المغيب مرة أو مرتين يسرن من وراء أزواجهن وعلى رؤوسهن الأحمال الثقال. هل تجرعت إحداهن كأس الحيرة مثلي؟ هل أخبرن بأن اليأس أحد الراحتين؟ حتى البدويات يسرن في شوارع هليوبوليس آمنات بغير شواغل. أيديهن تستريح على أكتاف أزواجهن. مالي أراهن في نعيم دائم؟

وتملمت نعيمة وقالت:

- وقولك هو رياح الخماسين حين تهب بالأحقاد والأتربة. وإنما أنت وصمت الأشياء بالسوء من حيث نظرت إليها بعين المقت. ومثلك يرى الأنجم المشعشعة خافتة، تؤول إلى العدم. والاختيار بين فندق شبرد وبين القصور الخديوية أمره هين لدى أولي الألباب. لا يحتاج توصية من أحد. ثم انتظار من يعود أو لا يعود من غيبته التي طالت في الفيافي هو ضرب من ضروب الحمق ولا غبار.

* القواصة: رجال من جهلاء الترك أو مردة الأرناءوط، منوط بهم ضبط الأمن، عرفوا بمصادرة الأفراد، والاعتداء عليهم، ومهاجمة البيوت، وارتكاب المنكر.

## 11

11 نوفمبر 1862م الموافق 19 جمادي الأولى 1279م
أشاعت ساكنة وفاة عزيز بين الناس على نحو ما طلب إليها الرجل أن تفعل، فلم تتسرب إلى الأنفس ريبة لما عرف عن مشيعته من الصدق والاستقامة. وأمست منذ حينها ترُى أحياناً واهنة واهية، وطوراً زاهرة زاهية، فانصرفت عنها سكينتها واشتد بها التقلب كأنها منازل القمر. وباتت منذ حينها على أعمال الخير أشد حرصاً، وإلى جلسات الورع أشد احتياجاً، ثم أنها أثرت ثراءً مبيناً لم يضر به إلا أموال تنفقها على العوالم في جود وكرم. وجاءتها نعيمة تقول :

- إن مساعد المبعوث الأمريكي (Mr. Wilkinson) يدعوك راجياً إلى إحياء حفل تعميد ابنه! آمل ألا يصرفك شاغل عن تلبية الدعوة. إن المدعوين أكثرهم من الأجانب.

وتجهزت ساكنة وتختها فارتدت عباءة سوداء غابت فيها. ولقد عمدت في هذا إلى الوفاء بنصيحة والدها بارتداء الحجاب الذي يعصمها عند ملاقاة الأجانب. فلما وصلت إلى محيط الحفل لم يعرفها فيه أحد، ذلك، حتى سمعوا صوتها بعد أن استوت في جلستها وسط الهمهمات. واقتربت منها نعيمة تقول وفي صحبتها امرأة إنجليزية :

- أود أن أعرفك إلى ليدي دوف جوردون (Lady Duff-Gordon)! أو "الست بتاعتنا" كما درج الناس على تسميتها هنا. إنها امرأة طيبة حد العجب، أصابها السل فجاءت لتقيم لدى

ابنتها وزوجها الذي يعمل في البنوك بالإسكندرية فتستعين بحرارة بلادنا على ما نزل بها من الأذى.
وسلمت عليها ساكنة تشد على يدها. وقالت المرأة الأجنبية كلاماً نقلته الضامنة إلى ساكنة بالعربية فسرت به :
- إنها تصفك بمنعشة القلوب! وقد نصحها ناصحون بقول عملت به: مثلما يكون في جو القاهرة الذهبي شفاء للأبدان السقيمة، فإن في صوت ساكنة العطوف دواء للأرواح المنهكة.
وانطلقت الزغاريد، وجاء الخدم السود بالحلوى والقهوة والغليون، وقد دعتهم حفاوة استقبلوا بها إلى تحررهم من هوان الطاعة. وحتى لقد صاروا شركاءً في الحفل مع الأكابر والأجانب. وأنشدت ساكنة صحبة العوالم الثمانية فأنصت لها السامعون غاية إنصات. وهم صائحون متى كان للصياح موضع: - الله!.. في ثورة انفعال. وكانت العوالم يكررن من ورائها كعادتهن، في وضوح وبيان.
وأتى أوان الراحة فأنشأت تستريح وتشرب من الماء ما تيسر منه، فلا يبدو منها إلا فيها الذي كشفته غير مرة، لضرورة البلع، وتبادلت مع نساء أرمينيات بضع كلمات. ثم قالت لليدي دوف:
- آمل أن يكون الغناء قد وافق تطلعات حدت بك إلى المجيء إلى هنا. وإلا فاللوم على العوالم!
ونقلت نعيمة قولها إلى الأجنبية فقالت الثانية ما مؤداه أنها قد بهرت بما سمعت على جهلها بالمعنى. إذ هي لم تتعلم من معاني العربية إلا زهاء أربعين أو خمسين مفردة. ثم ذكرت شيئاً عن إقامتها في جنوب إفريقيا قريبة من طريق رأس

الرجاء الصالح. حتى عثرت على ضالتها في ليالٍ عربية مشحونة قضتها ولا تزال تقضيها هنا. وقالت أيضاً :
- من أسف أن مصر في الخارج مفقودة المكانة لا يعرف حقيقتها إلا النفر القليل، إن أكثر العالم المتمدين يخالها كحال بقية البلدان الإفريقية، تعيش عيشة الهمجية والبربرية.
واستبد بليدي دوف السعال الذي صرفها عن مواصلة الحديث. وأخذت المرأتان المحبوبتان تحدقان إلى الأهالي المحتشدين في الشارع، وفي الطريق. وأما نعيمة فكانت جذوة نار لا تخبو. إنها ما تنفك متطلعة إلى الأكابر بعينين متوثبتين لترى الأصلح من بينهم. لا تزال رغبتها في الترقي لم تفتر بعد أن صارت رئيسة المغاني، وبلغت من عمرها عتياً. وقالت ليدي دوف بعد أن استعادت بعض عافيتها وصوتها:
- وأكثر ما أدهشني في مصر أن أجد كبرى المغنيات فيها ترتدي نقاباً. ولقد كنت على بيان أن التقاليد المحافظة سمة غالبة هنا في المظهر وفي السلوك. لكن الواقع فاق كل تصور. فلتعذري قولي هذا.
وقالت ساكنة من وارء حجابها بعد أن استوعبت ما نقل إليها :
- أبي عبد السلام يفرض عليَّ التلفع بالنقاب عند ملاقاة الأجانب. إنه شيخ أزهري. لا أحب أن أثير حفيظته. إن المغنيات هنا لا ينشدن إلا من وراء الستار وهن محجبات عن أنظار الرجال تمسكاً بأصول الحشمة.
وقالت ليدي دوف:
- أعتقد بأن دين الإسلام يمر بطور إصلاح شبيه بتجربة البروتستاتنية في أوروبا. وإذا كان والدك ميال إلى الانغلاق.

فإن الشيخ يوسف وهو شيخ الأقصر لديه تصور آخر مختلف. لقد أراني أفقاً رحباً للعقيدة الإسلامية بعد أن اتخذت من الرجل معلماً للعربية، وأظهرني على حقيقة الأسباب التي تدعو بالذهن الأوروبي إلى إساءة الظن بالعرب، وحثني بعد هذا على أن أدون كتاباً بالإنجليزية أزيل فيه الغموض عن أفهام لا ترى الإسلام إلا ديناً منغلقاً.

وقالت ساكنة يائسة :

- ورجال الدين في بلداننا مدفوعون بعامل الاضطرار لا الاختيار. أعني أن: ضرورة التغيير تدفعهم لا إرادة المسايرة. وغاية ما ينتظر منهم ألا يحدثوا في السفينة خرقاً وهي تتقدم في بطء وحذر إلى مآلها المنشود. ولقد عانيت الاضطهاد من أسرتي جراء مزاولتي مهنة شريفة. فكيف إذا تعلق الأمر بغير الشريف في نظرهم؟ ولا ينتظر ولو من باب الرجاء من المفتين وأئمتهم ما ينتظر من الحاخامات وأساقفتهم.

ونظرت لها ليدي دوف وقالت:

- لعلك لم تسمعي قط عن صكوك الغفران، الكاثوليكية، أو عن محاكم التفتيش، الإسبانية! وكل مذموم لدى الأذواق من مستجد أو محدث يصبح مع الوقت مقبولاً، لأن استمرار وجوده - في إلحاح دائب عليه - يكسبه شرعية البقاء، وعلى ذلك يستسيغه مبغضوه بعد نكران.

وقالت ساكنة وعينيها تتلألأن كجوهرتين:

- لقد حمل نابليون حين جاء إلينا غازياً نبأً حزيناً استقبله الناس، ونظروا إليه بعين طبعهم. إن كثيرين - ممن ارتبطت مصالحهم بإدامة الركود والتخلف - نكصوا إلى المفاخرة بأمجاد العهود

الماضية ولاذوا بها بغير أن يحركوا بعد المفاخرة ساكناً. وآخرون استبدلوا بأسباب المنية التي نزلت بالمماليك في أتون الصحراء وقت هزيمة البلاد المصرية في معركة الأهرام أسباباً أخرى للتحضر. والغناء واحد من تلك الأسباب. وأما الأهالي فبين توقيرهم لسلطة المشايخ وبين تعاطفهم الطبيعي مع مسيرة التحضر يجعلون الحال بلا غلبة لأي من الكفتين. ويطيلون الأمد إلى منتهاه. ثم هم حيارى من حيث أرادوا متاع الدنيا وغرقوا فيه، حتى الثمالة، في وقت توخوا السلامة مخافة عذابات تنتنظرهم في الآخرة، حق التوخي.

وقالت ليدي دوف :

- ليس ما سمعته بغريب عن أذني! ولقد أنتوي الالتقاء بزوج المبعوث الأمريكي قريباً، إنها امرأة أرمينية ذات إيمان يوناني راسخ رسوخ الأطواد، ألفيتها ذات مرة قاصدة إلى دير ماري جرجس بغرض الاستشفاء من حمى روماتزيمية أضرت بيدها! وماري جرجس فيما عرفت يماثل الإله آمون رع الذي قتل الثعبان فنال التمجيد لدى المصريين الأوائل جميعهم. وأما سيد البدوي فواحد من تجليات أوزوريس، مخترع المعرفة. لا يزال مولده المقام في طنطا مرتين من كل عام بؤرة القاصي والداني، وملاذ طلاب الهبات السماوية، والمعنى هنا: أن التدين ليس حكراً على طائفة دون غيرها، ثم هو ظلال ممتدة تعود جذورها إلى ماض سحيق القدم.

وشربت ليدي من القهوة رشفة وقالت:

- إن مثلاً إنجليزياً قد خطر ببالي يقول: لسان المرأة آخر ما يموت فيها ويعطب. ولكني أقول: إن آخر ما يفسد من المغني حنجرته!
وتابعت وهي ترقب أثر الثناء في محدثتها :
- ولقد استمرأت أذناي ما سمعته من إنشاد هو مزيج من العاطفة والتعبير حتى أوشكت أصيح شأني شأن الأهالي: "الله !"، وأيقنت المبرر الذي رفعك عن المستوى العام وهو موهبة إحياء النفوس. ولسوف أكتب عما رأيت وسمعت في رسائل أبعث بها دورياً إلى إنجلترا. فهذا الوجود الذهبي الذي شهدت تباشيره وأصابتني في القاهرة أشعته هو عين البهاء والشعر والحضارة!
وقالت نعيمة وهي الوسيط بين المرأتين، فتجتهد في نقل المعنى حتى إذا استعصت عليها كلمة لجأت إلى لغة الإشارة :
- أعيورني فسحة من زمن! وأنتما لا تكفان عن الثرثرة وطاقتي تقصر عن البيان.
وضحكت ساكنة فحاكت ليدي دوف - وهي التي لم تعي للضحك مبرراً - ضحكاتها، من طريق التأدب وإبداء التودد، وقالت نعيمة :
- وعن يميني كاتبة مرموقة جاءت إلينا من بلاد الإنجليز، وعن يساري مغنية الشعب والقصور، ماذا تود المرأة في ختام حياتها أكثر من هذا؟
وقالت ساكنة مدفوعة بالشفقة على نعيمة:
- وشعرك الأشيب، لو كان أبيض في لون الثلج، فقلبك نابض بحياة متقدة، وعيناك الوثابتان حين أبصرتهما في ليلتنا

ناظرتين إلى علية القوم أيقنت أن لك في الدنيا مآرب لم تستوفِ. وأما المغاني ممن اشتهر صيتهم فأمسى يتردد الحديث عن أمسياتهم على المقاهي، من مثلي، وممن لا يزالون يتحسسون مواقع خطاهم في الأكشاك والموالد فمدينون لك، يا نعيمة بحسن التوجيه.

وقالت نعيمة نافذة الصبر:

- إن مأربي وحيد تعرفينه: زواج بالخديوي سعيد، وليلة تقتبس من كتب الحكايات. وهؤلاء المغمورون لم يخيبوا رجائي قط حين طلبت إليهم أمراً، مهما عز، أما أنت فمن طينة المساومة نفخت روحك !

وقالت ساكنة خائبة :

- أعلمه علم اليقين، وأعجز عنه عجزاً لا يتغير، وقد سبق أن صارحتك مراراً وتكراراً بما هو حري بالإنصات له: إن الزواج بسعيد يجعلني في مرمى السهام والعواصف، والأقدار لم تهب لحاكم عيشة هنيئة، وأما النهايات فبين الاغتيال مثلما جرى لعباس بين حريمه وحرسه، وبين المرض كمثل داء يلم بمحمد علي فيضحي تائهاً خرفاً بعدما كان عقلاً رصيناً، أو أذى يصيب الرئة فيبثق صاحبه دماً كشأن الفاتح المغوار إبراهيم بك أواخر عمره. ثم أن الأعمار على كراسي الحكم أقصر منها مما على ما دونه، ومحمد علي في ذلك استثناء لا يقاس عليه.

وقالت نعيمة في عناد :

- سعيد لا يزال في الأربعين، على حين جاوزت أنت الخمسين ببضع سنين. والمرء الصحيح لا يرحل قبل تمهيد. وأما

المرض فيشمل أهل الحكم والرعية. والنهايات الحزينة تنتنظر التائهين في مسارب الصحراء قبل المورفورين من ساكني القصور.
ووقعت الجملة الأخيرة من نفسها موقع الأسى، وتساءلت كيف تضرب العجوز على الوتر الصحيح دوماً؟ والتفتت بعد أن حارت جواباً عن يمينها تقول لليدي دوف في إنجليزية مكسرة، إذ تخشى أن تسلم المعنى لنعيمة فتسيء الترجمة على المثال الذي يخدم غرضها :
- وما جوابك سيدتي على من يقصر غرض الزواج على منافع مادية يتحصل عليها الطرف الأدنى؟ أعني هل يقع الحب في ريف بلادكم ومدائنها موقع الأولوية في النفوس؟
وقالت ليدي دوف:
- العاقل يبحث عن الحب! إنه المعنى الأبدي.
ووجدت ساكنة في قول ليدي دوف ذريعة للزهو، وصادف حديث رحالة مستشرقة هوى في نفسها، المكتوية بالأشواق، قالت لنعيمة:
- وقول السيدة الإنجليزية خير من أيما مسوغات أقدمها لك، أو دفوع أجييء بها.
وسكنت الأجواء حيناً دون أن تخلو تماماً من عجيج الجماهير الحاضرة، وكان الصوت يسري مع الليل إلى مسافات بعيدة فترهف له الآذان في كل نحو، وينعم به الحي الذي يغنى فيه بأسره. وقالت ساكنة :
- وماذا يفعل مولاي سعيد في باريز تلك الأيام؟
وأجابت نعيمة:

- خبرني أن عزيمته قد صدقت على لقاء المسيو براناي هناك لأجل صك عملة مصرية جديدة تحمل اسمه. أما قيمتها فتوازي عشرة قروش، وأما الرسم فيخلو من اسم السلطان العثماني عبد العزيز، ولكن مهلاً.. لو اتفقت إرادتنا أنا وأنت لوضعنا عليها اسمك مهراً للزواج بالرجل!

وابتسمت نعيمة وحدها، وقالت ساكنة في زهد:

- لا زلت أشتاق إلى السحتوت، ولقد وطنت نفسي على التعامل به في الأكشاك والموالد على عهد ولاية محمد علي، ثم أتت القناعة بما لم يكن في حسباني من الأفضال، هكذا بدأت حياتي تأخذ منحاها المحمود منذ بدأت.

وهنالك نادى المنادي على ساكنة، فأخذت المرأة تستعد لبدء الفقرة الثانية.

12

18 يناير 1863 الموافق 28 رجب 1279

توفى الوالي سعيد متأثراً بداء السل فجعل الناس في اجتماعهم يتحدثون عن الدنيا الفانية التي لا تبقي من العائشين أحداً، وعن ريعان الشباب الذي لا يفتأ ينقلب خريفاً، ثم كيف يمنحون للملوك صورة دوام ليست لهم؟ وكيف لا يبقى إلا رب الموجودات ويفني ما دونه؟ أما ساكنة فاختلجت فيها عواطف القلوب المختلفة، وحين التقت بنعيمة قالت مبدية الأسى :

- لقد طلب إليَّ المرحوم قبل أيام من وفاته المشاركة في إحياء حفل افتتاح القناة حين تستكمل أعمال الحفر، على أن الأجل لم يسعفه ليشهد اليوم الذي عمل من أجله. لقد أخرجت الفاجعة الندابات عن وقارهن، وقطعت على المتطلعين سبيل الأمنيات، وأما أنا فأحسست وكأن المخايلي يلعب بنا جميعاً على مسرح خيال الظل، فيخفي واحداً ويبقى آخراً!

وقالت نعيمة:

- مولاي المرحوم سعيد قصد إلى باريز لأجل التطبب من داء السل على يد نطس أطبائها، وأما صك العملة - مع أنه حقيقة واقعة - فأريد به التعمية على الغرض الحقيقي للزيارة على منوال ذر الرماد في العيون، وحين عاد الرجل إلى الإسكندرية في خواتيم العام الفائت دخل إلى حشرجة الموت، وتوارى سريعاً وراء أفق هذا العالم المنظور، هذا ما بلغني خبره، وأما جثته فسوف توارى التراب في الروضة المسورة الكائنة في

سفح قلعة الديماس، بجانب إسكندر المقدوني ومدافن البطالسة الكرام، إجلالاً له.
وتابعت توجه حديثها إلى ساكنة في حنو:
- ولقد وقاك الحب مغبة الترمل. لابد لي أن أعترف - وفي هذا ابتغاء الحق وفضيلة الرجوع إليه - بأن استمساكك بعزيز كان خيراً لك. أما وقد عدم المبرر الذي من أجله كنت أخفي عنك رسائله، فهاك رسالة أخرى جاءتني منه، قبل يومين.
"أما وقد مررت ببلبيس والصالحية وقاطية وبئر العبد ومسعودية والعريش ورفح متستراً في سبيلي إلى البلاد السورية، فقد رأيت أن من المناسب أن أبعث إليك بما هو جديد من أمري. ولقد دعتني حاجتي إلى الشراب في تيه سيناء - قرب النهاية من الحدود المصرية - من بئر قاطية وبئر العبد إلى رشوة الخفراء هناك. واستخدمت البريد عن طريق قوافل الجمال لأبعث بالرسائل إلى نعيمة. وأعانني انطلاء فرية وفاتي على ظهر الحمار على الأفهام في مصر - أقول أعانني على تحقق مرادي في هذا كله.
وأما سعيد فأيامه باتت في الحكم معدودة بعدما تمكن داء السل منه، وأما خليفته المنتظر فليس إلا صورة منه في مقابحه. وعسكره المرابضون في طابا والمويلح والعقبة قد أبلغوني حقيقة علته، إنهم يأمنون طريق الحج البري إلى الحجاز، ويرسمون حدود الدولة كما أقره فرمان أول يونيو من عام 1841م بعد معاهدة لندن.

وقد بلغت وجهتي بعد عناء الأسفار فاستقبلتني خضرة الشام بوجهها الحسن ونفذت من الحدود متسللاً كما هربت، ولله الحمد، ولأجل ما تقدم فإنني داعيك إلى السفر إلى دمشق وترك الديار المصرية بعدما عشعشت فيها الغربان، واختل الميزان.".

وقالت نعيمة في تزيد:
- أفي قوله هذا غير الهراء؟ يبدو لي شامتاً بمحنة سعيد، وكان له أن يتفادى من هذا لو أن نفسه تنهل من موارد صافيات، انظري كيف ساء خلقه: من ناصح أمين للقصر، إلى حاقد أثيم على الحكم.

وقالت ساكنة عبوسة الوجه:
- لست أبغض في حياتي شيئاً إلا النفاق! إذا اعتزل سعيد الأريكة الخديوية فالأفاقون - من وجوه البلد وقناصل الدول - مظهرو الحزن المتكلف، وإذا ارتقى إسماعيل إلى سدة مصر السنية فإنهم مبدي المباركة الزائفة، وما أبعد عزيز عن مثل ذلك التأرجح.. وهو خير من أولئك الذين تعلقت آمالهم بحياة الرجل المائت، فحققوا في زمنه مغانماً اضطربت لها العدالة، ثم نظروا إلى زواله وقلوبهم واجفة.

وتخلل قولها ضرب المدافع المطلقة من قلعة الجبل، إيذاناً بنشر الخبر في العاصمة. وقالت نعيمة:

- مالي أراك في حزن المغضوب عليهم؟ ومناسبة المقام تقتضي منك إظهار الابتسام، ألم تري إلى المدن والبنادر وهي تتزين بعد إعلان تنصيب الوالي الجديد ثلاث ليالٍ، وإلى الأفراح والموائد وهي تقام؟ وحتى سمو الأميرة أم إسماعيل أهدتني هذه، ووزعت على أرباب الدولة والعلماء والمشايخ ما هو على مثالها من القيمة.
وكان فستاناً مذهباً قد انعكس بريقه على عيني نعيمة فلمعتا، فقالت ساكنة ضحوكة:
- ما إن تلبسيه عادت إليك نضرة الشباب وينع الصبا. فهنيئاً لك به.
وقالت نعيمة مجتهدة في أن تقبض على الفستان بين يديها العجوزتين:
- وشجرة العمر قد أثقلتها السنون. فلا ينفعها زي ولا عطر ولا زينة !
وقالت ساكنة ترفع حاجبها الأيمن عن مستوى الأيسر :
- هل ينفعها الغناء؟
وقالت نعيمة :
- ينفعها إذا تطابق مع لسان الحال، لا وهماً متهيئاً أو زيفاً متخيلاً.
وأنشدت ساكنة فاختارت لارتجالها مقام الكورد الحزين، ثم عادت تنشد الكلمات عينها في حيز البياتي والصبا، وغيرهما من المقامات الآسفة *:

يا حسرةً، مرّ الصبا وانقضى     وأقبل الشيب يقصّ الأثرْ

واخجلتا والرَحلُ قد قُوّضا     وما بقي في الخير غير الخبر

وغلب على نعيمة حزن شامل أصاب روحها، واستقر، في باطنها، جاسماً، ثقيلاً، إنها ما تذكر إلا أياماً من عمر طويل قضته في تهيئة المغاني، وتعليمهم الضرب على العود، ثم تقديمهم لبيت الوالي: يوماً اختيرت فيه لرئاسة المغاني فأذيع النبأ السار في ميدان قراميدان وسط حفاوة من يعلم ومن لا يعلم، ويوماً غضب منها مولاها عباس الأول فعاقبها شر عقاب - ضرباً بالسواط - حتى لم تزل آثاره على جسدها تشهد لمحنتها، ويوماً كافأها سعيد عن إخلاصها بما تستحقه من نعمة المال، وقالت لساكنة :

- لا تحسبي شراء المغاني عملاً سائغاً، وأما اختيارهم من الأسواق فهو التقاط الإبرة من كومة القش، ثم أن استقامة سلوكهم وبعدهم عن الفحش بغير تربية أمر عسير دونه خرط القتاد. وكان واجبي أن أضع هذه على سبيل البغاء وتلك على سبيل الغناء. إن لي في سبيل التفرس السليم طرائق تعينني على الاختيار.

وواصلت نعيمة بعد صمت :

- العينان إذا هما خفيضتان عنى ذلك أن الجارية تتنكر لحالها وتأسف لبيعها كسلعة، أما إذا ارتفعتا في غير اكتراث دل ذلك على استمراء صاحبتهما الذل والمهانة في الأسواق، وافتقارها للرغبة في الحياة الكريمة. وقد ابتدأت المحاولة لمنع تجارة الرقيق عهد مولاي عباس الذي كان يمقت الاستعباد فعين الرقيق في مناصب مهمة، ثم بدأت موجة العداء ترتفع عهد ولاية سعيد الذي قضى بمنع تجارة الرقيق في عام 1856م منعاً باتاً، لكن الجنوب وهو غير واقع تحت سلطته الفعلية تمرد

على القرار، ولابد لي أن اعترف هنا اعترافاً بغيضاً: أن المنع كان خسراناً كبيراً لي، وأنني لازلت اجتهد في إحضار الجاريات من الجنوب شأني شأن المخالفين.
وقالت ساكنة في تقرير، غير آبهة :
- وما يتردد عن كون إسماعيل أوروبي النزعة سوف يفضي واقعاً إلى القضاء على أسواق النخاسة قضاءً مبرماً، فالأوروبيون منذ عقدوا العزم على إلغاء تجارة العبيد في مؤتمر فينا عام 1814م، وهم سباقون إلى مطاردة سفن العبيد في البحر. ولم يبقِ للعبيد ظهير يتركزون فيه إلا جنوب الولايات المتحدة.
وأسرعت نعيمة تسرد لساكنة لطائف، كقولها وهي تخرج خبزاً يابساً فتبله بالماء وتأكله بالبلح :
- ولقد قضيت ثلاثة أشهر في بادئ حياتي أتقوت على الخبز والماء، وتعلمت الزهد وروضت نفسي عليه، وكرهت الفقر وصارت بيننا عداوة دائبة. وجمعني مع قارئات القرآن الورعات والغواني الباغيات مجالس ما أكثرها! وضحكت من أن حاجتهما إلى الشهرة واحدة، وكراهيتمها للضريبة متوارثة. وفي ربيع شبابي أحببت عامل بناء فقير حباً لا مزيد عليه، حتى إذا ارتقيت على سلم الوظيفة درجات وجدتني استبدلت به رجلاً آخراً، وهكذا أفقدتني تقلبات الحياة إيماني بالحب !
وهما كذلك يتسامران في معية قطع من الليل فاحم، حتى مطلع الفجر، وبيان خيطه الأبيض، فجاء رسول إسماعيل إليهما فجثا بعد أن فتح الباب عنوة يقول:

- إن مولاي إسماعيل أمر بأن يمنح للمغنية ساكنة قصراً بناه له جده محمد علي عام 1846م، إذ رأى جلالته أن الجدارة تقضي بأن يمنح النفيس من المعمار للقيمات من النساء.
وأطلقت نعيمة زغرودة ارتجت لها الصحون، وفزعت لها الطيور الرابضة لدى حافة النافذة. وأرادت ساكنة التحقق من موقعه ومساحته فأجاب الآخر في عزم :
- إنه بحي الخليفة جوار درب الكحالة على مساحة ثمانمئة وثمانين متراً.
وطفقت ساكنة تطلب من رسول إسماعيل مدفوعة بحماس طفولي أن يصحبها إلى مقامها الجديد، ثم أسرعت تلبس هندامها على عجلة كأن الريح تحتها، وكانت بشائر الفجر قد بددت الدياجي، والأرواح تستقبل ثمرة نزلت إلى الرؤوس بعد طول انتظار، وعلى مسافة أمتار من مسجد السيدة نفسية وقفت ساكنة تتطلع إلى مشربيات القصر الهائلة ونوافذه العملاقة وبوابته الخشبية، وقالت :
- خبرتي بحياة القصور تدلني على أن شيئاً ليس يجري فيها بلا ثمن.
وقالت نعيمة:
- لا أحسب إسماعيل من طينة سعيد، تلج قدماه في يسر وحلة الحب. وإنما أهداك إياه ليتسنى له الاستماع لصوتك هنا في أويقات صفائه القليلة، ودون أن يهبط من حال القصور الخديوية إلى حال بيوت المغاني، ثم لكيلا يتنازعه في صفائه هذا أحقاد نسائه وغيرتهن.

وأحست ساكنة اطمئناناً إلى قول نعيمة، وتحركت وقلبها عامر بنشوة الارتياح حتى ولجت الباب، وجلست على مقعد البهو، وقالت في تظاهر مشيرة بسبابتها:
- أيها الخدم! هاتوني هاذيك الكوب!
ولم يجبها أحد فحضحكت نعيمة منها حتى لاحت سنتها الفضية، واصطحبهما رسول إسماعيل الذي ضج بما يجري صامتاً وهو يقول:
- إن لقصرنا هذا طابقين اثنين، أما طابقه السفلي فيحوي على ثلاثة أجنحة، وعشرين حجرة، ومبنى للخدم يقع إزاء البوابة الخشبية، وإسطبل للخيل، وأما طابقه العلوي ففيه - إلى جانب الحرملك - قاعات أرضها من الرخام وأسقفها منقوشة بماء الذهب.
وابتهجت ساكنة بما سمعت كأنها البدر ليلة التمام، ثم لم تلبث تتبع رسول إسماعيل إلى الحمام، فقال الأخير:
- وأما الحمام فصمم على الطراز العربي، وفتحتاه العلويتان المزينتان بالزجاج المعشق تدخلان له شعاع الضوء طيلة النهار، كما ترين.
ووقعت ساكنة في مرمى الأشعة المذهبة، التي انسلت في حياء إلى هذا الوجه المبتسم. وإنها كذلك إذ سمعت رجة عنيفة، ثم صراخاً يأتيها، فأسرعت المرأة إلى نعيمة منقبضة، وكان فراقاً بينهما قد وقع قبل الحمام، وقالت مصعوقة، وهي ترى العجوز ممددة على الأرض الرخامية، في إحدى القاعات:
- لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد ماتت نعيمة!

* الأبيات في ختام موشح لابن زمرك، مطلعه: أبلغ لغرناطة السلام.. وصف لها عهدي السليم.

## 13

انسحب الألق من العيون وباتت الوجوه ذاهلة، أنى لأشباح الموت أن تترصد الناس في ليالي الهناء؟ ثم يالها من نهاية تشع بالمآساة والعبثية! جيء بأمهر أطباء القصر العلوي لكن السيف قد سبق العذل، وغلب الوجوم حتى بدا أن المعاني أوهام، وقالت ساكنة آسفة :

- انزلقت قدماها على الأرض الرخامية، فوقعت على رأسها وماتت! كثيراً ما بثت لي شكواها من الأسكافي.

وتدافع الشباب من حارات الحسين يحملون الجثة على سواعد فتية، واستحال القصر مأتماً ومشيعاً، وأقيمت أكبر جنائز العام - بعد جنازة سعيد - فمضى موكبها من جنان القصر إلى مسجد السيدة نفسية، وحتى الندابات أخلصن في النواح على سيدتهن، وتدافع العوام إلى هنالك فبلغوا من الكثرة حداً عجيباً، كأنهم الجراد، وقال قائل منهم:

- توفى سعيد ونعيمة في غضون يومين، فسبحان من له الدوام.

وقال آخر:

- وسعيد حين توفي ساد التوجس، ونعيمة خلقت الفكاهة!

وأطرقت ساكنة وحدها بين جدران قصرها الذي لم يفتأ ينقلب مزاراً، وحتى أزيز الباب الخشبي أزاد الأجواء التهاباً، والتماثيل جامدة بغير حياة. وجال في خاطرها حديث لم تجد من تبثه له ونديمتها قد التحقت بعالم غير العالم، وكتبت بالحناء على البلاط الرخامي:

- "هنا فقدت ركناً ظليلاً، وغابت شمس حنون".
ثم جاء المساء الذي أرخى سداله وطوى الأحزان، وتسربت إلى نفسها ثمة قناعة بالقضاء الأليم، ودق الباب الضخم فلما فتحته وجدت إزاءها رجلاً، فارع الطول، مهيب الهيئة، وأما طربوشه فوشى بمركزه، وأما لحيته فبنية منسقة في نظام، وقال في هدوء :
- إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، جئت بنفسي لأواسيك في فقيدتك وفقيدة الدولة.
وانسحبت ساكنة من سبيله، ولم تكن في نفسها طاقة لإظهار حفاوة بمقدمه، وحتى ذهولها تلاشى أمام حزنها الغائر، وكان منظره لديها مألوفاً لكونه ممن دعوا إلى مجالس سعيد غيرة مرة، وحاولت أن تحمد له منحة القصر الجديد بغير استطاعة، أليس القصر الجديد نفسه الذي أودى بحياة نعيمة؟ وقال إسماعيل بعد جلوسه على الأريكة المنعمة:
- إنها سخريات الأقدار ولاعجب. وأما نعيمة فكانت من المخلصات للبيت العلوي ولمهنة الغناء ووفاتها مما يثير الأسى، ولا ينفعه السلوان.وإني لأأنف من عادات العامة من الصراخ والعويل وراء الميت، وأتشاءم من ذلك، ولا أرى لتلك المظاهر مبرراً إلا القنوط الذي يزري بمنازل الصابرين.
وأسند ظهره مستريحاً حتى بدا فوق حقيقته حجماً وتكويناً وقال:
- ولقد أقص عليك أثراً مشابهاً وقع لي فلم أفهم الحكمة منه إلا متأخراً: في مايو من عام 1858م أقام المرحوم سعيد مأدبة بالإسكندرية حضرها أحمد باشا رأفت - أكبر أولاد أبي

والمرشح الأول للولاية - وكذا حليم باشا أصغر أنجال جدي، وأما أنا فأبعدني توعك مزاجي عن الحضور، ولما انقضت حفلة ذلك اليوم وعاد الأميران إلى مصر، وقعت العربة التي كانت تقلهما في النيل، عند كفر الزيات، فغرق الأمير المرحوم أحمد باشا لكونه بديناً فأعجزه ثقله عن الوثوب من العربة، وأما حليم فقد أنجته خفة جسده من مصير الغرق المحتوم. وهكذا صرت بترتيبات الأقدار أرشد رجال البيت العلوي بعد وفاة أخي الأكبر!

ولم تفقه ساكنة رابطاً بين القصتين إلا كونهما يقعان تحت عنوان المآسي، فقال إسماعيل قاطعاً حيرتها:

- لقد وقع اختياري عليك لشغل منصب ضامنة المغاني الشاغر.

وقالت :

- جلالتك قصدت إلى معنى هو أن المقادير قد تذهب بالصديق وتزيحه إلى عوالم النسيان، لأجل أن تتيح الفرصة لرفقته الأقربين في التصدي لما لم يكن متاحاً لهم في أثناء حياته. ولكن القبول بالمنصب المعروض سوف يفتح أبوباً لا تنتهي من التأويل. فلن نعدم من يقول بأن ساكنة دبرت لرئيستها المؤامرة لتتولى موقعها. وهنا سيأتى على بنيان السمعة الطيبة التي حرصت عليها دوماً - سوف يأتى عليها من قواعدها. وفي المقاهي لا يجيد الناس إلا شرب المعسل والنميمة!

وضحك إسماعيل في وقار جامد، حتى استعاد قطوب وجهه الأول تدريجياً، وقال وهو يتأمل شحوب وجهها :

- ورحيل سعيد فتح خزانة النوازل الأليمة على مصرعيها.. آه، قد آلمني رحيل جدي كثيراً، ولما حدث أن قبض

بالإسكندرية، بقصر رأس التين، على روحه المنزوية عن العالم. وواراه التراب في مسجده الرخامي المرمري الذي أنشأه على جبين قلعة الجبل. كنت آنذاك في الصعيد أستزرع الأراضي في أطيان مملوكة لي، وأجد في تحسين المحصول من حيث أوجدت في تلك الأصقاع معملاً بخارياً لتكرير السكر، على مثال المعامل البريطانية الأولى، وألفيت نفسي لما تناهت إليَّ أصداء الأنباء الحزينة باكياً كطفل فقد أباه، فأضحى بغير سند ولا عضد.

وقالت ساكنة:

- ونعيمة شغلت في نفوسنا نحن المغاني والنائحات موقع الأم الحنون. وأشهد أنها لم تخذل مستجيراً بها قط، ولم تتورع عن رفع مظلمة نزلت بطائفتنا.

وقال إسماعيل شغوفاً:

- وكيف علاقتك بعبده الحمولي؟ هل بينكما لا تزال منافسة مستعرة كما يتردد؟ وقد روى لي أنه غنى مذهب: كادني الهوى وصبحت عليل من مقام النهاوند فأبدع فيه ذات ليلة إبداعاً أدى إلى غشيان عزت بك - موظف المالية، فأخذ الرجل يواسيه ويرشه بالأرواح المنعشة ويدلك أطرافه حتى أفاق! وما يروى عنه من غريب تصرفه وعظيم تفننه في ضروب الغناء يرفعه إلى مقام الأسطورة الشعبية.

ولم تسر ساكنة بما سمعت إذ هي ترى نفسها نسيجاً وحدها، على أنها لم تجد بداً من أن تنشد من أغنيات الحمولي قولها:

يا أمير الحسن مين قدك في حسنك..

والطيور من وجدها هايمة في غصنك..

والزهور من سعدها نايمة في حضنك..

والنجوم في محبتك متجمعين..

فلما فرغت من الغناء، وكان رناناً مرتجفاً، قالت متحفزة:

- ولتأذن لي جلالتك بأن أخالفك الرأي في تقييم الحمولي: وقد جمعتنى معه أعراس كثر، فكان يغني للرجال في السلاملك، وأغني للهوانم في الشكمة (الشرفة)، على مسمع من الرجال والنساء. ولست أنكر رخامة صوته، ولعله استعان بمنحة الصوت على تمرير ضلالة الخروج عن قواعد المقام، فنقض القاعدة مرات وند عن المألوف مرات. ثم أن نغماته تجتمع أصولاً وتتفرق فروعاً، متسلسلة، منتهية إلى القرار. ولكنها - النغمات - نفسها تجري بلا ضابط في أحيان، وبلا غاية في أحيان. ولقد أتساءل: ماذا بقى للجذور المصرية في الغناء إذا نحن طمسنا معالمه على هاذيك المنوال المستهتر؟ فلا تبقى شرقية ولا تصير غربية. ولعلك أعلم مني بحكاية الغراب الذي شاء أن يتمثل الحجل في مشيته فأخفق، فلما أراد العودة إلى سابق عهده بالمشي أعجزه النسيان.

وقال إسماعيل مستدركاً بعد أن أحس مبالغته في الثناء على الحمولي :

- وقد صدق فاغنر الموسيقي الشاعر قوله بأن الموسيقى مؤنثة. لا تنس أننا لازلنا نقتبس أسماء الأنغام والمقامات من الفرس. ورياح التجديد الحديثة لما أتت إلينا من الشطآن الأوروبية مداهمة غيرت العادات المتجذرة. إن خصومة التجديد شيء. ومسخ الفن تحت زعم التجريب شيء آخر.

وراحت ساكنة تعي أن اقتباس إسماعيل قول الشاعر الأجنبي، واحتذائه من قبل بمعامل البريطانيين البخارية شاهدان على صحة نزوعه إلى المزاج الأوروبي. وقالت تجاري حدسها وتجاريه :

- وللأوربيين نفوس رقيقة، وعقول مستبصرة، وأفهام نابهة. ولكن لما كانت الشمس تطلع من المشرق فلابد أنهم استخدموا ميراثاً شرقياً على درب نهضتهم الحالية!

وعادت تذكر الحمولي فتقول:

- ولست أحب أن أذكر إنساناً بسوء، وأما الحمولي فلذوي فننا مجامل، محسن إلينا، لا يبغض منا إلا من ركب الدنايا وأخل بما يسميه "شرف الحرفة". ومسلكه المحمود هذا يشفع له فيما تسبب فيه من إضرار بالقواعد القديمة، ومن تشجيعه الهواة على ترك الأصول، وحضه الآذان على استقبالها.

وأومأ إسماعيل إيماءة خفيفة، ثم نهض صاحباً المرأة إلى الطابق العلوي، وكان لا يزال أعلم منها بدهاليز القصر الذي خبره - على عهد ملكيته الطويلة له - شبراً شبراً. وقال لما اننتهى:

- وتلكم القاعات تصلح للتحضير (البروفات)، واستقبالي فيها جائز الحدوث.

وذكرت ساكنة حديثاً يتعلق بالشرف الذي يلحق بقاعات يكون والي مصر في عصر نهضتها الحديثة ماثلاً فيها. فخفض إسماعيل لها جناح الامتنان. وقال :

- ولن تعدم القصور الخديوية من حفلات تحييها أيضاً.

وقالت تجتهد في التذكر:

- وإني أتوق إلى لقاء يجمعني إلى حريمكم: شفق نور هانم، ونور فلك هانم، وفريال هانم، وصافيناز هانم..
وطبع على وجهها ابتسامة. وتساءلت فيما بين نفسها عن سببها: ألأنها زيفت إحساسها تجاههن؟ أم لأنهن فوق أن تذكرهن عدداً؟ وقال إسماعيل :
- أسمعيني ما طاب لك من إنشاد عسى أن نجرب القاعات، وكفاءة الاستماع فيها.
وأنشدت ساكنة في غير عناء* :

| | |
|---|---|
| في ليلة كتمت سر الهوى | بالدجى لولا شمس الغرر |
| مال نجم الكأس فيها وهوى | مستقيم السير بعد الأثر |
| وطر ما فيه من عيب سوى | أنه مر كلمح البصر |
| حين لذ الأنس شيئاً أو كما | هجم الصبح هجوم الحرس |
| غارت الشهب بنا أو ربما | أثرت فينا عيون النرجس |

وذكرت شيئاً عن شاكر أفندي الحلبي الذي أتى إلى مصر في عام 1840م ناقلاً إليها فن الموشحات، فلقن أصولها ودوربها لعدد من الفنانين الذين أورثوها بدورهم لمن جاء بعدهم. ووجدت من إسماعيل قبولاً وشغفاً بحديث الموسيقى لم تجد مثيله لدى أي ممن أحيت في قصورهم الأمسيات من أصحاب الجنان. وحتى لقد خالت الرجل عازفاً ماهراً وهو الذي لم يجرب الغناء إلا متندراً أو مستعيداً الذكرى في أيام غربته في الأستانة على عهد صراعه مع عباس. وقالت:

- لدي طلبان أرفعهما إلى الأعتاب الملكية ممثلة في شخصكم، الأول: أن ترفعوا غارة العجمة عن ألحان موسيقانا. وفساد التجديد الذي من أغراضه الاستعانة عن الصورة الحسناء بصورة شوهاء.
وساد في القاعة المترامية صمت أزادها جلالاً، وألجم الخوف لسان المرأة عن النطق بمطلبها الثاني، إنها تريد أن تبث للوالي الجديد عذابات الأهالي فتفرغ صحيفتها من شكواهم، ولكن أليس ذلك مما تضيق به الصدور؟ وحاولت عبثاً أن تصوغ مطلبها في رفع المظالم على نحو ينسب الأسباب إلى سعيد دون إسماعيل، ولكن أليست الأسرة العلوية بعد رحيل عباس حلمي بناء واحد؟ وعين الحياة زوج محمد علي أنجبت سعيداً، وهوشيار هانم جاءت بإسماعيل إلى الوجود بمصاهرة إبراهيم بك بن محمد علي أيضاً. والسبل مهما تفرعت تفضي إلى تاجر الدخان الألباني الذي ابتدأ التحديث وابتدأ القهر. وعصف بالعدالة على درب المطامح الجليلة. وضميرها يؤرقها كطفل غاضب. وأبصرت الجدران المنقوشة بماء الذهب سجناً قبيحاً، وخالت الأسقف محبساً لعصفور تعيس. وقال إسماعيل :
- لا يصح أن يخالجك الخوف في معية الوالي.
وقالت منفلتة من عقالها:
- ساءني الظلم والفقر والمرض.. الأهالي يخشون مستقبلاً لا يعرفونه. إنهم يظنون بي قدرة على التأثير في ذوي الأمر. وفي حي الحسين كما في حي هليوبوليس يضج الناس بسوء المعاملة وانعدام الأمن. وتوخيكم العدالة يقيكم من الجور ومقابحه.

وبحرصكم على المصريين يخلد الثناء الطيب عليكم على تراخي الأحقاب.
وقال إسماعيل متأثراً :
- والمصريون في قلبي هذا.
واستمع الأخير أكثر الليل لشكايات ساكنة التي كانت ما تفتأ تسردها على أسماعه كالهزيم، بقلب جريح، حتى قولها :
- القواصة! بئس الجماعة هم! وإن كان الأمن لا يتحقق إلا من وراء مصادرتهم للفلاحين، وضربهم الأبرياء، ثم اقتراف الفظائع فلا حبذا الأمن!
وروت له قصة القواص الذي ضبط وهو يبدل - أثناء إطفاء حريق أحد الأثرياء - قميصه المرقع من قميص صاحب البيت، وقوله في تبرير ذلك: ألم يكن ذاهباً طعماً للحريق؟ أفألام إذا استخلصته لنفسي؟"، فقهقه إسماعيل متغافلاً عما في القصة من أسباب للأسف.

-----

الأبيات من موشح جادك الغيث الأندلسي.

## 14

دعا إسماعيل ساكنة إلى إحياء حفل بسراي عابدين التي راح ينشئها فور توليه الحكم، فصارت بينها وبين سراي القلعة التي شيدها جده واتخذها مقراً للحكم منافسة في رونق المعمار. وحين بلغت وجهتها وقبل أن تلج البوابة انحنى لها الحاجب تشريفاً، ومن المحقق أن المرأة قد اكتسبت بكرور السنين مكانة لدى القصر سامية، وثقت دعائمها رزانة تحلت بها. فلما دلفت إلى حديقته كان إسماعيل منخرطاً في حديثه بين نفر من أصحاب الشأن:

- إن قصرنا هذا هو اللبنة الأولى لظهور القاهرة الحديثة، وقد أصدرت الأوامر - في خضم القيام بأعمال البناء المتعلقة به - بتخطيط القاهرة على النمط الأوروبي من ميادين فسحية وشوارع واسعة.

وقال من صحبة إسماعيل واحد بين التساؤل والإطراء :

- وكيف تفتق ذهنكم عن إيجاد مكان للقصر؟

وقال إسماعيل في زهو، بين جنبات قصر لم يكتمل، ولم ترتفع له بعد أسوار!:

- أرملة عابدين بك الأرناؤوطي! وقد كان لزوجها - وهو من كبار قادة جيش جدي المرحوم - قصر صغير هنا. فأمرت بهدمه بعد أن وفيت ثمنه وألحقت به أراضٍ واسعة ليقام عليها "قصر عابدين" الجديد!

وتقدمت ساكنة إلى محيط إسماعيل، على وجل، فلما أبصرها أظهر لها توقيراً أذهل المحيطين به حتى خالوها من حريمه. وقال والأنظار تتطلع إليه وإليها :

- من المعلوم يقيناً أن المرحوم محمد علي قد أسس مدرسة للأصوات والطبول عام 1824م، وأخرى بناحية الخانقاه بعد ثلاث سنين، وثالثة للعزف بالنخيلة عام 1829م، ورابعةً للآلاتية عام 1834م، (وهنا أسدى جل الحضور دهشتهم لمعرفة الرجل الدقيقة بالتواريخ، وأكثرها سبق مولده في نهاية 1830م) وقد انتقل هذا الميل الشغوف إلى المعازف إليَّ، فأرهفت غرار عزمي على توسيع نطاقها، وآية ذلك أن أمرت بإيفاد المغني عبده الحمولي إلى الأستانة ليقتبس عن الموسيقى التركية الثرية ما يروق له، ونصحت له بأن يصطفي من نغماتها ما يلائم الذوق المصري، ويطابق الروح الشرقية، بناءً على توصية ساكنة هانم لي !

وذهل صحبة إسماعيل حتى لم يكد يصدقوا حديثه، وبدأ بعضهم يتودد إليها تودده إلى الوالي فيجاري وصفه لها بالهانم. وتساءل إسماعيل :

- وبماذا تمتاز الموسيقى التركية عن نظيرتها المصرية؟ أعنى ماذا يسع الحمولي أن يأتي إلينا به من الشمال؟

وقالت ساكنة في خبرة من أحيت الأمسيات في قصر طوب قابي التركي:

- النهوند، الحجاز كار، والعجم عشيران، وسائر الآهات..

وقال إسماعيل كالذي يتمثل صورة مرت في خاطره وميضاً :

- وحديقة الأزبكية! قد عهدت إلى برهان بك بإزالة مياهها الراكدة وبيض بعوضها الناقل للعدوى، ونبتها المائي الكثيف، لتحوي تخوتاً للطرب يغني فيها مثيلات ساكنة هانم.
واستدرك :
- وإن كانت العين لا تفتح على مثلها.
وتقلص وجهها الأسمر، وكتمت انفعالاتها في ابتسامة أظهرت فيها تعبير الامتنان. وصاحب الجنان قد بالغ في إكرام مضيفته إلى حد الإسراف، والعيون ترصد ما يجري لتنقل خبره إلى حريم ينتظرن في البهو كجمهرة من النجوم. وحاولت جهدها ألا تجتمع إليهن فمكثت في الحديقة حتى انصرفن تباعاً إلى الداخل. وابتدأت مراسم الحفل الذي أنشدت فيه فكأن صوتها المرسل يرن في جوف عميق. عساها أن تحسن الغناء فيغدق عليها إسماعيل ما يثير حفائظ نسوته من الأوصاف إعجاباً وإكباراً؟ أم تسيء الغناء فتجر على نفسها الاستهجان وتنزوي في ركن المستبعدين من حفلات القصر؟ ولما فرغت قال إسماعيل على مسمع من شفق نور هانم، ونور فلك هانم، والبقية :
- تلك الليلة، ساكنة هانم قبضت على أهداب الغناء بيديها هاتين!
وتململ حريم إسماعيل حتى بدين على حافة بركان، واستمسكن بصبر شديد قبل أن يقذفن بالحمم فيفسدن ليلة لا تفسد، وقال إسماعيل كالثمل كيداً فيهن :
- ولقد أناديها بعد الآن بساكنة بك! لي أن أمنح رتبة البكوية لها تقديراً واعتزازاً، كأول من تحصل عليها من جنس الإناث !

وأبدت الصمت مخافة أن يزيد في الشعر بيتاً آخراً، واتكأ إسماعيل على مقعده تمهيداً لقول يضيفه، فبعثت حركته في الأجواء المشحونة بالأحاديث صمتاً مترقباً. وقال كأن منحة البكوية الأخيرة قد فتحت في عقله باباً موصداً، منسياً :

- وحين أعلمت بمرض عمي سعيد في أثناء إقامتي بالقاهرة، جاذبتني الخواطر، وساورتني الانفعالات، ومن المعروف لديكم أن العادة تجري أن ينعم بلقب البك على أول من يحمل إلى الوالي الجديد خبر صيرورة العرش المصري إليه، وأن ينعم بالباشوية إذا هو بيك، وأما مدير المخابرات التلغرافية المعروف بسي بك فكان أول من علم بنبأ الولاية التي نزلت إليَّ من السماوات منحة لم أعمل لها حسباناً، وكان الرجل على وشك أن ينتقل إلى دنيا البشوية إذا هو أبلغني برحيل سعيد إلى دار الآخرة، ولكنه عهد إلى أحد صغار موظفيه بالمهمة فتنكر له وسبقه إلى إبلاغي بالنبأ السار وصار الرجل المغمور بيكاً، ينازع سي بك في المكانة، ومثل تلك الانتهازية تهزني هزاً، إذ كيف يتسنى لي قيادة دفة سفينة أصيب ركابها بداء الانتهازية المقيتة؟ إن القائلين بأن السمكة تفسد من رأسها قد جانبهم الصواب، إذ لم يعوا أن القمة لا تتشكل إلا انعكاساً للقاعدة الكبيرة.

وقال من الحضور واحد :

- هكذا أحالت سنون الاستعمار وعصوره المتتالية المصريين شعباً انتهازياً. حتى إذا جاء الباشا العظيم (يقصد محمد علي) وأبناؤه أرادوا بعث الحياة في فراعنة طمس الدهر محاسنهم.

واستاءت ساكنة من حديث الأخير، وعدت حديثه تزلفاً أخرق ومراءً يجافي الحقيقة. وقالت منفلتة العقال :
- وعار علينا إذا فعلنا عظيم أن نلقي بالذنب على من وقع عليه الأذى، وندع الجائر يرتع ويلعب في حل من العتاب. وثلاثمائة سنة من الخلافة العثمانية قد ألقت بظلالها الكئيبة على حياة المصريين، ووصمت سلوكهم بالتواكل والخمول، ثم جعلت بينهم وبين نظرائهم من الأوروبيين هوة لا يتصور لها تدارك.
ووعيت الأفهام أن ساكنة بحصولها على البكوية - ودعم إسماعيل لها - قد أسقطت دواعي التحرج في مجالس القصر. فغدت تفوق الأصاغر، وتناكف المتوسطين، وأما الأكابر فبينها وبينهم محض درجة. وإنها ما كانت لترد على القول بالقول إلا لشعورها بالقوة الجديدة كأنها نجم قد ولد.
وقال إسماعيل وحديثه يقطع المناوشات كسيف بتار :
- ولسوف أجعل من سراي الجزيرة مقراً للحفلات لأسباب احتفظ بها، ولما كان القصر العالي ولا يزال مقراً لوالدتي، وسراي القبة ولا تزال مقاماً لولي العهد، فقد رأيت أن تزين الشوارع المفضية إلى هاته الثلاثة بالتحف والفوانيس، وترصع بالشموع، وأن توضع في غايتها أقواس النصر!
وجيء بالهدايا محمول بعضها على أعناق الخدم، وبعضها تجره أيديهم، وثالثه عرف به على ألالسنة المنادية: فمنح للكبراء القصور والأطيان، والجواري الحسان، والجواهر الثمينة، والجياد المطهمة، وأهدي للمتوسطين صرر النقود، والسيوف المرصعة، والآنية الفاخرة، والرياش الوثير، وأعطي للأصاغر الجوائز من الخواتم والساعات، والملابس

والحلويات.. وطفقت ساكنة تجول النظر والفكر في كل أولئك. إنها لم تر قط مثيلاً لهذا البذخ. وفي عيد وفاء النيل، أو تذكار يوم الجلوس السنوي عهد عباس وسعيد لم تصل مظاهر الأبهة إلى أحد أعشار ما تشهده في ليلتها العجيبة. والاستعراضات في ساحة عابدين الفسيحة، أو بالعباسية - مكان المولد النبوي - ليست إلا تقليداً هزيلاً لما تراه من فرق وألعاب وحواتية جيء بهم للإمتاع على رؤوس الخلائق. وسمعت بيكاً إلى جوارها يقول في حماسة الغوغاء :

- فليحيى إسماعيل العظيم حاكماً أبدياً للقطر المصري!

وأجاب كل مستخدم في القصر على الهتاف :

- فليحيى إسماعيل العظيم!

وخفضت الرءوس المرفوعة إلى ولي النعم وآل بيته فور الانتهاء من توزيع الجوائز، ثم أقيمت مأدبة للطعام هائلة جلس على رأسها إسماعيل فقرب ساكنة إليه من جهة اليمين، وأخذت تسأله عن شأن الغناء، والأماكن التي تصلح أن يتخذها الآلاتية مجلساً لهم يأتيهم فيه الناس، فأجاب إسماعيل:

- سوف تقام في أهم الميادين جوقات موسيقية، وأهمها تلك التي اتخذت موقفها في الطرقة بعالي قوس النصر تجاه القصر العالي، أكاد أبصر الناس طروبين للتخوت الكائنة فيها، من أمثال تخت عبده الحمولي، وتختك، كأنهم يستمعون لترنيمة الملائكة أو زقزقة العصافير!

وتفطنت ساكنة إلى أن الرجل إنما يعمد إلى تغييب العقول عن شقائها اليومي باختياره هاته المواقع الحيوية التي هي ممر

الشعبيين الكادحين في ذهابهم وإيابهم. فلاذت بالصمت الطويل حتى أشار الآخر بيمناه إلى صورة معلقة على الجدار، وقال :

- هذه صورة عبده الحمولي معي! ولقد أرى أن اجتماعنا هذا لابد له من توثيق يحفظه أيضاً.

وقالت ترمقها بنظرة فاحصة :

- خير للوالي أن يعنى بالفنون وأهلها عنايتك بها، ولكن أخشى أن يفهم أن قدومي إليكم كان طمعاً في صورة أدعي بها صلة بالقصر، فأجني منها - بعد الإدعاء من جانبي - مغانماً ليست لي. إن هذه صورة جمعت الحسن كله اللهم إلا من ابتسامة عبده وشنبه المفتول.

وضحك الحضور مجلجلين. وقال رجل في آخر المجلس في تجرؤ لكأنه انتهز فرصة الهرج :

- وما داعيك، مولاي إسماعيل، إلى توقير المغنية ساكنة حتى جعلتها أقرب إليك في جلستك هذه من المشايخ ورجال العلم والبشوات؟

وامتلأت المائدة بالنقمة على ذاك المجترئ، وعم الصخب كالعواصف فقال إسماعيل لما انتهوا *:

- والشواهد جمة كثيرة على قوة تأثير الغناء، وسوف أِسرد منها واقعتين اثنتين، إحداهما أن أهل إسبرطة كانوا في فتنة اشتهد لهيبها، وعظم شرها، فعمد جماعة من موسيقييها إلى مكان الزعماء القائمين بأمرها، فمازالوا يغنونهم حتى طربوا، فزالت الخصومة بينهم زوال السحب عن السماءات الملبدة، وحل صياح الطرب مقام صياح الشغب! هذه واحدة.

وجاء الخدم الذين صبوا في كأس إسماعيل حتى ملأوه بالنبيت العتيق، وساد الصمت لمعرفة الحضور بعدم انتهاء حديث الوالي المبجل من واقعته الثانية :

- وأما الثانية - وبينها وبين الأولى تناقض من حيث النفع والضرر- فأن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رءوس الجبال للاحتشاد، فحين ينعقد جمعهم يغري العدو بهم من حيث يغني فيهم بلحن لهم معروف، فتهيج فيهم ثائرة الحنين، وينزع بهم الشوق العظيم إلى منازلهم، فينصرفوا عن واجبهم في القتال بدلاً من أن يثاروا إلى منازل الحتوف، ولما تكرر وقوع ذلك فيهم، قضى رؤساهم بإعدام كل من يغني بينهم بذلك الغناء.

وتابع يحدق إلى المجترئ :

- وأما موقعك في آخر المائدة أو في أولها فقد حدده الخدم في القصر حسب المكانة والرتبة! وإذا أسرفت في إبداء الاعتراض سلبنا منك أطباق اللحم والدجاج، ومنعنا عنك الهدايا والعطايا.

وأشار إلى الخدم فقال:

- خذوا منه طبق اللحم!

وهمس الرجل وعلائم النقمة لا تفارق وجهه المحتقن :

- ولو كان نابليون في موقعه هذا ما انتصر لامرأة على حساب رجل قط، إذ أن الإمبراطور الفرنسي كان لا يرى النساء إلا خدماً للرجال، لا يزدن عن ذلك.

كان إسماعيل يعلم أن نابليون ملهم محمد علي جده العظيم في مضمار التحديث والحكم، حتى أن الأخير أمر بطبع سيرته الذاتية في مطابع بولاق بعد ترجمتها إلى لغته، وأن قدومه إلى

القطر المصري غازياً مع ضرب المدافع هو الذي فتح البيبان لحكم جديد، ينتهي سلساله بقدومه إلى العرش، ومن ثم كان للاستشهاد بسيرته وجاهة ليس إجحادها في استطاعته، أو التنكر لها في صالح مشروعيته. وقال إسماعيل بعدما نقل إليه حديث الرجل الغاضب :

- وقدوم نابليون أيقظ الأمة المصرية من سباتها العميق، على حين لا تزال أنت ومن شاكلك في غفلتكم الأولى، غير مدركين أن الرجل حمل إلينا فكر التحديث، لا قوالباً جامدة من الحجارة، أو ميراثاً صلداً من القيم !

وصمت حيناً كأنما استحضر مشهد دخول نابليون القاهرة على رأس جيشه الفائز من تحت قبة باب الفتوح، استحضره بين عزف الموسيقات، ودق الطبول، وقال بعد أن عاد من استرسال خواطره:

- إن غراميات نابليون غير المواتية هي التي أورثته كراهية النساء، واحتقارهن.

---

*الواقعتان رويتا تفصيلاً في كتاب حديث ابن هشام.

## 15

اقترن لقب البك بساكنة منذ تلك الساعة قران دوام، وفي الشوارع شاع مناداة الناس لها به مجاراة لإسماعيل، فكانت من قليلات نعمن بمحبة العوام ورضاء الحكام. ولما يأتيها خاطر الشوق إلى عزيز - أو يضنيها الأسى لوفاة نعيمة - تنشد من مقام البياتي:

في مجلس التفريح مليت المدام - للي أحبه

فقلت له بعدك ضناه الغرام - اسمح بقربه !

فحينئذ تذهب عنها الحسرات وتصفو نفسها، وتحس الوجود وحدة واحدة متجانسة، مشعة كالكوكب الدري. بيد أن العمر يجري بها فوق صهوته كالخيل الأهوج! وكم ربيعاً مضى؟ وكم ربيعاً آت؟ ولما تسمع بداء الصداع الذي أصاب الحمولي ونوباته التي تهوي به أرضاً، يزداد إشفاقها عليه من إشفاقها على نفسها، على ما بينهما من عظيم المنافسة، ويوماً قصدت إليه راقداً على سرير المرض فقالت :

- يقولون عنك إنك تقضي ثلثي وقتك عليلاً، وثلثه الباقي في مراعاة خواطر الناس!

وقال مبتسماً، يرثى لحاله:

- يد القدرة تقوم بما تعجز عنه يد الأطباء! هكذا يقولون أيضاً.

وبارك لها الحمولي منحة البكوية التي عدها الرجل انتصاراً لحرفة لا ينظر لها بعين التوقير إلا نفر من العارفين قليل. وهنالك أبدت ساكنة استياءها من أن تنعت بالعالمة في أحوال

وتنسب إلى أهل المجون في أحوال. وعلى ذلك قال الحمولي متأثراً :
- إني لما ساءني جهل الناس بحرفتنا غدوت أفكر جدياً في الخروج من زمرة المغنيين إلى زمرة التجار، ذلك من حيث افتتح حانوتاً ابتاع فيه الأقشمة فاشترك فيه مع بعض التجار بمبلغ عشرين ألف جنيه. على أني أخشى أن يمنعني الخجل ويحجبني الحياء عن طلب الوفاء فأنتهي صفر اليدين مديناً للشريك، دائناً للناس.
وصمتت تتجاذبها الإحساسات، فمن جهة فإن خروج أكبر منافسيها من ميدان الغناء يخلي الساحة لها لتستأثر بالأعراس والأفراح، ومن جهة فإنها تعلم استحالة تفوق الرجل في دنيا التجارة للأسباب التي ذكرها. وشكا إليها الحمولي من خراج الكبد مر الشكوى حتى أدمعت عيناها، وقالت :
- وقد عهدناك جلداً صبوراً فلا تنزل عن مستوى المقاومة إلى هوة اليأس لأيما عارض أو حادث.
وتجلت على وجهه المنهك ابتسامة ارتفع لها شنبه وضاقت لها عيناه، ودخلت زوجه ابنة المعلم شعبان القانونجي وفي يدها الشاي، دخلت إلى مجلسهما في ضرب من الحذر، وقالت منفعلة حتى كادت تهوي الصينية من يدها:
- أعجب به من اجتماع! وهل يجتمع الشمس والقمر إلا في المنامات؟
وقال الحمولي لا يكاد يأخذ شهيقاً إلا ويزفره كأنه ينفث النيران:
- وقدوم الست ساكنة هنا ثم حديثها إليَّ بعث في نفسي الحياة، وزادني اتصالاً إلى واحة الأمل.

وقالت زوجه في أسف وهي تتقدم إلى مقعد جوار السرير :
- وكأن بالحمولي الحمول للنائبات، الجلد على الخطوب! ولو سمعتي أنينه آناء الفجر يصوغه في قالب الإنشاد لخلته حماماً نائحاً لا بشراً متألماً، وقد نهيته عن الاستسلام لليأس، مثلما دعاه محبوه من عازفين فرقته إلى أن يدع إنشاد مثل هذه الأغاني المحزونة التي تدمي فؤاده الكسير.
وكان موقع ساكنة بين الرجل وامرأته، فقالت محولة رأسها إلى الحمولي:
- وشغف إسماعيل بالفنون من عجيب الأمور، وإني لما تهيأت لي أسباب الاجتماع إلى الولاة من قبله في مجالسهم، فقد لاحظت أن المغاني لديهم ظلال قاتمة لا يخرج إعجابهم بهم عن دائرة الاستئناس والسمر، أما إسماعيل فيبدو فصلاً في تفرده، وما منحة البكوية وزيارتك للأستانة إلا شاهدين جليين كوضح النهار.
وقالت زوجه:
- منذ تلك الزيارة المشؤومة إلى الأستانة اشتد به داء الكبد حتى أقعده على سريره.
وقال الحمولي منفعلاً حتى ظنته الأنفس قد شفي من علته :
- أما كفاك توهم العلاقات بين أمور ليس بينها صلة؟
والتفت إلى ساكنة يقول مضيقاً عينيه:
- وعنايته (يريد إسماعيل) بالمظاهر والشكليات تدفعه إلى الحرص على من يحييون له لياليه!
وقالت زوجه:

- أبصرت الحبال في نهاري ممدوة في الساحات العمومية، يلعب عليها البهلوانيون ألعابهم المحيرة للألباب، أما الصواريخ فتدوي طلقاتها في أفق العاصمة كلها ناشرة أنباء الأفراح إلا في بيتنا هذا الذي كتب عليه الشقاء قبل أن تقوم فيه عمدان!

وقالت ساكنة تصادق الحمولي قوله:

- وحفلات القصور ليست إلا غيثاً من فيض، فاستقبال القناصل عند تعيينهم صار أحدوثة العام والخاص، إن ثمانية من أجاويد الخيال تجر العربات الخديوية فتذهب بمعتمدي الدول إلى حيث يستقبلهم العاهل المصري، ثم توزع عليهم الخيول والسيوف.. وأزعم أن تلكم المظاهر لم يسبق إليها في التاريخ المصري كله، فلا حفلات الفراعنة الأقدمين، ولا أبهة الاحتفال البطليموسي، ولا بذخ خلفاء المسلمين، ولا ضرب المدافع أيام انتصارات إبراهيم على أبواب إستانبول، أقول لا شيء من ذلك يضاهي عهدنا السخي هذا..

وقالت أيضاً وهي تهش البعوض:

- وإسماعيل أراد للقاهرة أن تضاهي باريز في بهائها، وعهد إلى هاوسمان بتخطيط المعجزة.. أرادها كذلك ولم يفكر في البعوض!

وقال الحمولي مقهقاً:

- وفي غمرة حماسته بالعمران نسى أمر الناموسية!

وتفرق الحديث كانقسام النهر الواحد إلى أفرع، منها قول الحمولي:

- ولقد أجد نفسي مرات بين مطرقة الحاجة إلى التجديد في الغناء، وبين سندان الحرص على القديم حائراً، فتارة إلى

الأول، وطوراً إلى الثاني، وما لاحظته أن أهل الأعراس من غير المختصين يطربون للتجديد حتى يكاد يغشى عليهم إذا سمعوه، وأما أهل الحرفة وأصحاب الأقلام فيستمسكون بالقديم استمساك الطفل الضائع بجلباب أمه!

وأخفت ساكنة حقيقة موقفها المعارض للتجديد لما استوحشت أن تصارح مريضاً بما قد يؤسفه، فقالت في سياسة:

- وأما أنا فبين بين. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء!

وجالت بصرها في أنحاء الحجرة المسكونة برائحة المرض، وركزت ناظريها في ظلال وأنوار، وصورة عبده واقفاً كالطود تتوسط الجدار كأنها تزري بالمرض، وأخرى تجمعه إلى ثلاثة من الرجال وامرأة، وقال لما رآها تقف عند الأخيرة :

- عبده الحمولي (يريد نفسه)، ومحمد العقاد، والسيدة عمر المطربة، وخليل باشا أغا، و..

وقالت ساكنة مبادرة:

- وساكن الجنان إسماعيل! لا يخفى منظره عن غريب أو قريب، مهما تمادت الصورة في ردائتها..

وقالت زوجه محدثة ساكنة حديث امرأة إلى امرأة :

- بربك لم لا يستغل صلته إلى الوالي في طلب التطبب في أوروبا؟ وقد شق عليه أمر التجديد في الغناء حتى أضناه، ولم يكن ليبذل جهداً كالذي بذله لولا تشجيع إسماعيل له على إهمال نفسه في سبيل الفن، ثم طمع الاثنين في مقاربة الأجانب!

وقال الحمولي :

- لم لا تنعمين بالصمت؟

ورفعت زوجه يدها إلى السماء:

- ها قد زجرني عبده وألجم لساني! فأين أنت يا إلهي منه ومني؟ وقد نعمت في بيت أبي شعبان القانونجي* الفقير بما لم أنعم به في بيت زوجي عبده الثري، و لا أستبعد أن أراه متزوجاً بغيري يوماً فتلك الثانية..
وقال الحمولي :
- والثالثة والرابعة والخامسة.. وما دمت على حال من الصحة فشيئاً ليس مستبعداً..
وضحكت ساكنة لأول مرة منذ ماتت نعيمة، وسرعان ما اتخذ الحديث مسار الجدية والمصارحة بعد أن عدمت المجاملات واستوفت أغراضها، من ذلك قول ساكنة للحمولي :
- لست أعي لحرصك على اكتشاف المواهب سبب! فإذا قصدت إلى البلاد الريفية - كدأبك لما تكتمل لك العافية - باحثاً عن ذوي الصوت الحسن، من جامعي الأقطان، والصبية الريفيين، والعمال بالمحالج، وغيرها، فأنت بذلك تخلق لنا - نحن المغاني - المشكلات من العدم وتجيء بالمنافسين إلى ساحة امتلأت بالمبارزين الأشداء.
فيقول عبده وعيناه تجتهدان في تفادي النظر إلى محدثته :
- من العدل أن ينعم الكل بفرصة!
وتقول ساكنة بعد أن روت له شيئاً بصدد اضطهاد أسرتها لها :
- إن الفرصة تقتنص اقتناصاً، لا تأتي لأحد على بساط أحمر.
ويقول عبده :
- وكيف بالذي قطن الريف أن يتصل إلى المدينة إلا على أجنحة الخيال؟ ومن الصحيح أن نعينه على أن يضع قدميه على أرض ثابتة ثم أن لا يحس غربة. وإني مثلاً لأجد في

تمرين الصبية الهواة على المقامات ثم اختبارهم فوق المآذن لذة تعيدني إلى أيام دربت فيها أوتار صوتي على مئذنة جامع الحنفي!

وانتهى بينهما النقاش كما ابتدأ على غير هدى، فنهض الحمولي متكئاً على عامود سريره النحاسي حتى توضأ وصلى صلاة العشاء.

وقالت زوجه لساكنة وهما يبصرانه حانياً هامته وصدره راكعاً:

- فلا تنزعجي منه ولا يكن في قلبك إزاءه إلا الحب.

وشخصت ساكنة إلى صورته على الجدار قاعداً بين الأزهار في هيئة المتفكر، ثم أرجعت النظر إليه ساجداً، فلمحت في إصبع يمناه خاتماً ثميناً من الزمرد منشوري الشكل معروف اصطلاحاً بـ Capuchon، فقالت الأخرى لها:

- وعبده تبلغ به الشفقة حداً أنه يأسى للعناكيب إذا دهسها عن غير قصد، ثم أنه يفيض على الساقطات من سجاله الطيبة - إن حدث والتقى بهن في نهر السبيل - من حيث ينصحهن غير محتقر ولا ضجر.

وقالت ساكنة آسفة :

- ولا يراعي الأقدمية ولا يمتثل لذوي التجربة! فما عساي أجني من تأدبه مع سائر المخلوقات؟

وقالت الزوج بعد أن أشارت عليها بمزيد من الغفران :

- وقد وقع رؤيتكما معاً في نفسي موقع الانبهار والإجلال، فكيف بالعوام إلا أن يغشى عليهم؟ فلو أنكما طفتما ليلتنا هذه شوارع القاهرة الجديدة تنشدان سوياً لأول مرة؟ ثم أن إنارة

الشوارع واتساعها على النحو الذي صارت إليه من شأنها أن تيسر حركتكما هذه..
وقفز اقتراح عابر إلى دنيا الحقائق الفعلية، فراحت ساكنة تنشد في طوافها الحارات :
خبط الهوى على الباب، قلت الحليوة أهوى جالي !
أتار الهوى كداب، يضحك على القلب الخالي !
ويجيب عبده الحمولي وسط الحفاوة والتصفيق، بين هاته الأشجار المقامة على الجانبين، فيتناسى علته وتنساه آلامه:
ليه يا حمام بتنوح ليه، فكرتني بالحبايب!
يا هلترى نرجع الأوطان ولا نعيش العمر غرايب!

ترى إلى أي وجهة يقصدان والشوارع كلها تموج بالفرح؟ أإلى شارع سليمان باشا؟ أم إلى ميدان عابدين؟ أم إلى شارع ميريت؟ والحق قد نعمت القاهرة الخديوية بحركة ليلية مفعمة بالحياة، وتبارى المغنيان الفريدان في إنشادهما الفريد، حتى ارتجالهما في ضحك:"يا فجل أخضر!"، فغلبها الحمولي مرة، وغلبته ساكنة مرات، وإذا الأول يلعب بحبات السبحة الكهرمان والعنبر فيقلبها في يديه ويشم رائحتها، وإذا الثانية تمضي في حياء متسربلة بالحجاب منغمة الأهازيج، وخلبت العقول، وآن السرور، وبدت العمدان المضيئة، كأنها تحف مسيرة سعيدة، ورشت الأيادي ماء الورد، وأما ساكنة فخالت القمر والأنجم من فوق رأسها يتعانقان.

*شعبان القانونجي: صاحب مقهى بحي الأزبكية، منح الحمولي فرصة الغناء فيه، زوجه بابنته خوفاً من أن يستقل وحده بعد اتساع شهرته.

16

في الثاني من أغسطس من عام 1869م، وبعد إعلان المسيو دي لسبس عزمه على إتمام مشروعه، أعلمت ساكنة بنية إسماعيل افتتاح ترعة السويس للملاحة العالمية في السابع عشر من نوفمبر، من ذات العام والشهر، ولأجل ذلك جاءها رسوله يقول:

- إن أوجيني إمبراطورة الفرنسيويين، وفرنتز يوسف إمبراطور النمسا وملك المجر، وفردريك فلهلم ولي عهد التاج البروسياني، وقرينته بنت الملكة فيكتوريا، وهنري أمير هولندا، والأميرة قرينته، كل أولئك من المدعويين.. وأما الغناء فليس أجدر من ساكنة بك لتترأس جوقة المغاني المختارين لتلك المناسبة.

وتساءلت ساكنة مدفوعة بالفضول وحده:

- وهل السلطان العثماني عبد العزيز من بين المدعويين؟ لعلي لم أسمعك تذكره.

وصمتت حيناً كأن وجهها ينطق تعبيراً: "أراك قد سهيت عنه؟"، وقال رسول إسماعيل:

- لم يسقط سهواً، وإنما أبى الحضور لحاجة في نفس يعقوب، وعلى أية حال فمن الخير تغيبه! إذ أنه إن حضر - الباب العالي - هبط بمصر إلى ولاية عثمانية محضة، هكذا أخبرني مولاي إسماعيل الذي ارتأى اعتماد أسلوب تكشير الأنياب في تعامله مع الأتراك، بعد عهد استمالتهم إليه بالرشوة!

ونظر إلى كرسي من الخيزران في زاوية قاعة القصر لئلا تلتقي عيناه بالمرأة الوحيدة، وقال :
- إن العلاقة بين القاهرة وأستانبول آلت إلى علاقة جزية مالية، أوهى من بيت عنكبوت!
وأدرك رسول إسماعيل أنه تورط في أكثر مما ينبغي له التورط فيه، فانصرف يقول :
- نريد لك أن تغني ليلة تظل أصداؤها صادحة إلى أبد الآبدين! وأن تبهري الأجانب الآتين من الأمصار الأوروبية، فنراهم مأخوذين الحواس!
وراحت تتبعه تقول:
- ومن دعا إسماعيل إلى الحضور من المصريين من غيري؟
وقال في إجمال عجول :
- رجال العلم والأدب، والفنون، والتجارة الكبرى، والاستغلال الفني، ومن الأجانب: مراسلي الجرائد الغربية من ذات الدرجة الأولى والثانية وحتى الثالثة!
وقالت كأنما تبصر في مخيالها مشهداً حافلاً :
- أكثر بمتطفلين لا حيثية لهم يتسللون إلى أرجاء الحفل! وهؤلاء إما لصلتهم إلى أرباب الحيثية أو لحصولهم على دعوات من طريق غير الطريق، سوف يملأون بتعدادهم الجنبات بالهرج والمرج، ويزرون بجودة الاستعراض والغناء!
ونسجت ساكنة بين أخبار قدوم أوجيني، منذ أسبوعين خلتا، ثم استقبال إسماعيل لها في قصر الجزيرة، وبين اسمها المذكور من بين المدعوين لافتتاح حفل القناة، روابطاً دعتها إلى استجلاء حقيقة، قد غابت عنها. ثم قفز إلى وعيها أنباء تتردد

عن تسخير وزير الأشغال العمومية، ومدير الجيزة الأيدي، لجعل الطريق المفضي إلى الأهرام مسلوكاً للعربات، ظليلاً للتمشي، إكراماً للإمبراطورة الفرنسية التي أبدت جم رغبتها في ارتياد هذا الأثر التليد، فتساءلت، شيقة إلى زيارة الأهرام :
- ومتى يستكمل العمال تمهيد ذلك الطريق المفضي إلى الأهرام؟
وقال رسول إسماعيل، في لهجة عجلى تماماً كما المدة المذكورة:
- في خلال ستة أسابيع من يوم البدء!
وقال أيضاً :
- للعالم أن يدين بالفضل لأوجيني!
وفهمت المغزى الذي يرمي إليه: أن أوجيني بإلحاحها على زيارة الأهرام هيأت السبيل إلى إصلاحات ينعم بها الناس كافة، ولكنها ضاقت بالمعنى الذي يولي الأولوية لفرد على حساب مجموعة.
وتساءل رسول إسماعيل لأول مرة، لما رأى على وجهها علائم الشرود، في احترام يلائم البكوية :
- ألم تسمعي عن احتفالات ما تنفك تقام لأجلها (يريد أوجيني)، ثم سياحتها على النيل، وزيارتها لآثار الصعيد؟ ولأكون صادقاً فإن الأنباء تتردد عن أن الخديوي يجد بها وجداً.
وقالت كأنما تذكره بالعلاقة المشتهرة بينها وبين الوالي سعيد :
- لعلها سحابة دخان لا أكثر! وأما احتفالات الجنوب فينهض بها مغنيو الجنوب، لا نحن. (تريد مغني العاصمة)
وقال الآخر مصراً على ترديد ما يجول ألسنة العوام :

- لقد سافر إسماعيل معها بنفسه إلى الأقصر، ونثر تحت قدميها أفانين الترف والملذات، ولعلها وقفت إلى جواره عند خرائب طيبة القديمة، فخالت نفسها ملكة فرعونية رغم اتصالها واقعاً إلى الجمال الأوروبي!

وقالت ساكنة تعيد الحوار بادئ سيرته :

- ولعله كرم الضيافة الذي يسرف فيه إسماعيل على كل من نعم وينعم بالاقتراب منه.

وجالت بصرها في أنحاء القصر ولسان حالها: إذا هو يمنح القصور للمغاني ثم يهبهم البكوية فكيف بالملوك والملكات؟ وتذكرت أنها سهت عن "إكرام الضيف" مما جاء ذكره على لسانها، وقالت وهي تتأهب لإحضار السجائر، ثم القهوة في فناجينها ذات الآذان :

- هاك الشربات!

واعتذر رسول إسماعيل عن الشراب المقدم إليه، معيداً على آذانها الغرض الذي من أجله كانت زيارته، وطالباً إليها أن تتناسى ما خلا هذا من نقاشهما. وشاءت أن تستبقيه لتعرف منه المزيد، فقالت وهما عند صحن به نافورة رخامية تتوسط الطابق السفلي للقصر :

- وأين إسماعيل الآن؟

وقال وقد ضاق بأسئلتها ذرعاً :

- اصطحب وزيريه نوبار وشريف، وكبار رجال البلاط والحكومة، وقصد إلى الإسكندرية، ومنها استقل يخته المعروف بالمحروسة متوجهاً إلى بورسعيد ليستقبل أرباب التيجان في الثالث عشر من نوفمبر!

وصمتا حيناً فعلا خرير ماء النافورة، وقال الرجل سباقاً إلى الجواب على سؤال افتراضي :

- مبلغ علمي أن الأسطول المصري سوف يصطف في المرفأ الفسيح الذي أنشأته شركة القناة في بورسعيد، مع مثله من سواه من أساطيل العالم.

وحتى إذا حل يوم السادس عشر من نوفمبر، قصدت ساكنة مع زمرة من المدعوين إلى بورسيعد، في سبيل استقبال الإمبراطورة أوجيني، فلما أبصرت مشهد الصباح الباكر، وفيه عموم الجاريات وموسيقاها، والأعلام الخفاقة، والطوبجية المصرية، وجماهير المتفجرين، غمرتها عواطف السرور، وتساءلت في استهانة :

- وكيف تبدو أوجيني؟

وأجابها الذي على يمينها:

- إنها تتوسط أكابر الدولة الفرنسية، على ظهر باخرة النسر، في حماية عدد من السفائن الغريبة.

وقال ثانٍ:

- لقد أيقظوا المدينة لقدومها منذ السابعة صباحاً، لم أضج بدوي المدافع مثل اليوم. وقد سبقها أمير هولندا، والمسيو دي لسبس، وفرنتز يوسف، على الترتيب، في الأيام التي خلت.

فلما اقتربت أوجيني من شاطئ عامر بالحياة والبهاء، أبصرت زينات كتبت عليها بأوراق الشجر عبارات في تحيتها، وأقواس نصر، وبوابة زينة في ارتفاع الإهرام، وسواء أكان ذلك حقيقة الشعور العام إزاء الإمبراطورة، أم أنه الإعداد والترتيب،

فلاريب أن المشهد الحافل قد أخذ الألباب، وخلب الأفئدة، وقالت هي قولاً نقله الجمع:
- يا إلهي.. لم أر في حياتي شيئاً أبهى من هذا!
وكانت أوجيني حينئذ امرأة في أواسط العمر، بلغت الثالثة والأربعين ربيعاً، حازت جمالاً بديعاً، ووجهاً حسناً، وقدومها إلى القطر المصري، قد سبقه حضورها إلى أعياد فتح القناة في البندقية، ثم أعياد البوسفور التي أعقبتها، وحياتها نعيم دائم، تحسد عليه، وأما ساكنة فكانت امرأة على حافة الغروب، فإذا زال حسنها فلم يزل حسن صوتها، تقف والعجز يزحف على وجهها، لتغني وتستقبل امرأة، غريبة، وبعقد المقارنة وجدت الغيرة إلى قلبها سبيلاً، ووطأ الضجر نفسها بأقدامه. وتساءلت - وقلبها إلى الإثبات أميل - في تفسير الغيرة والضجر: ألأن إسماعيل يجد بأوجيني -بينما كانت هي من قبل مهوى أفئدة الحكام العلويين- فكأنما استبدلت الإمبراطوة الأجنبية حضورها بموقعها؟ وهتف بها هاتف الشوق إلى أيام الغناء في جوقات الجيش على عهد محمد علي، وصباها البهيج، ثم عادت تقول في أسف: وأين أنا من إمبراطورة الدولة البونبرتية؟ وكتمت انفعالاتها أمام مشهد باخرة ترسو في مرفأها، ثم أخذت تتابع إسماعيل يهرع إلى صاحبتها في سبيل أن يهنئها بسلامة الوصول، وقال إسماعيل متجرداً من أبهة الخديوية :
- إن وجود الإمبراطورة الفرنسية أوجيني في حفلتنا خير ما أتفاءل به.
وقالت الثانية في لطف قولاً نقله المترجم :

- ولإسماعيل أن يشتري التفاؤل من بحر استكانت أمواجه بعد ثورة، لا منا نحن البشر!
ثم تلاه في استقبال أوجيني إمبراطور النمسا والمجر "فرنتز يوسف"، فـ"فردريك فلهلم" ولي عهد الدولة البروسية، ثم العواهل والأمراء، وقالت أوجيني لفرنتز يوسف :
- وكاد البحر العجاج يعصف بقاربك! فحمداً للرب على نجاتك من موج يعلو كالجبال.
وقال فرنتز يوسف في ورع :
- كان لابد لي من العروج - في طريقي إلى بورسعيد - إلى يافا، لأزور القدس الشريف، بدافع التقوى المسيحية، ثم كان محتماً أيضاً أن لا أتأخر عن ميعاد قدومي إلى بورسعيد (المحدد في الخامس عشر من نوفمبر)، ولو اضطرتني الضرورة إلى تحدي البحر المائج، والأنواء العواصف، بدافع الوفاء بتعهد أعطيته!
وقالت ولسانها لطيف، كنسمات بحر ما تنفك تداعب الوجوه :
- إن النمسا والمجر سوف يدفعان أثمان ما أفدحها! لو جرى لملكهم مكروه، أو مسه سوء.
وجالت ساكنة ناظريها في الأمدية المفتوحة، أمام عينيها، النافذتين، فتميزت ثلاثة ارتفاعات خشبية مكسوة بالحرير والديباج، وكانت لم تزل قابعة تحت مظلتها المنتمية إلى عدد من المظلات البديعة، المنصوبة على الشاطئين الأفريقي والآسيوي!

وأما الارتفاع الذي في الوسط فلأصحاب التيجان، والأمراء والعواهل، وثانيه الذي على اليمين لمشايخ الدين الإسلامي، وسمعت من يشير إليه ويقول :

- هنالك الشيخ مصطفى العروسي، شيخ الأزهر! ومفتي الديار، لا أتذكر اسمه! (يريد محمد المهدي العباسي)

ثم كان هذا الذي على اليسار لأحبار الدين المسيحي، الذين جهلت بماهيتهم جهلاً تاماً، دعاها إلى الظن في انعدام الفوارق بينهم، فكانوا في أرديتهم الدينية نسيجاً غامضاً، وكتاباً مبهماً، ولكنها بتقصي الحقيقة أدركت أن بينهم خادم كنيسة القصر الإمبراطوري بباريس، وأن حضوره ليس لمباركة القناة، كما يعن للمتفرج أول وهلة، بغير تحقيق، ولكن - حضوره - لعقد قران المسيو دي لسبس!

وقال لها واحد من مؤسسي الترعة، كان ماثلاً في صدر الشاطئين المملؤين بالمتفرجين، مع غيره من أفراد مجلس إدراتها :

- عجباً بالمسيو دي لسبس إذ لا يزال يفكر بالزواج! والحق أن الزمان قد أكل عليه وشرب.

وجرحها قولته، فقالت :

- الحب لا يعترف بناموس!

وقال كمن يمشي في العتمة، موغلاً، على غير هدى:

- انظري إلى شعره (يريد دي لسبس).. ليس أكثر بياضاً منه شيء.. حتى الثلج!

وقالت وضفائرها قد غزاها المشيب :

- كم عمره بمقياس الزمان؟ (وهنا لم تنتظر جواباً) على مشارف العام الرابع بعد الستين، أما بلغك أن مثلي يكاد يضاهيه سناً؟

واعتذر إليها الرجل ووجهه حاز من الحمرة حظاً عظيماً، وتوارى منسحباً.

## 17

قالت ساكنة مجملة :
- أوجيني تحظى وحدها بعناية تفوق عموم الحاضرين مجتمعين، ثمة ارتفعات خشبية ثلاثة: لأصحاب التيجان، ومشايخ الإسلام، ورهبان الكنائس، ومظلات ثلاثة، في صدر الشاطئ: لمؤسسي الترعة، ورؤساء الشركات العالمية، ورجال الصحافة، والجنود سلبوا الحياة من الحفل بتواجدهم بين رصيف النزول وهاته الارتفعات الثلاثة، ثم السفن الحربية: ست مصرية، ومثلهم فرنسية، وسبع نمساوية، وخمسة ألمانية، وهكذا، وهكذا! ثم هذه المدافع التي صكت وتصك الآذان! ولا زينة إلا بهاء الطبيعة في إبكارها، ونحو ثلاثين سفينة تجارية اصطفت على شكل قوس هائل.
وقالت العالمة حليمة لها :
- ثمة قول عرفناه من الأقدمين: لكي يملك إنسان العالم عليه أن يملك سادته! وهذا الترتيب ارتؤي له إرضاء الفئات، من أكابرها إلى أصاغرها. فلاعجب إذن أن يكون للغائب فكتور عمانوئيل الثاني صديق إسماعيل وأسطوله الإيطالي موقع محفوظ على حين يربض ثلاثة آلالاف من المتسللين الرعاع في غير نظام!
وقالت ساكنة في مداعبة :
- أولا تنسبين إلى الرعاع يا حليمة؟
وقالت الأخرى:

- إن صلتنا (تريد نفسها ورفقتها السبعة من العوالم) إلى من حازت البكوية تنفي عنا شبهة الانتساب إليهم.
وقالت عالمة ثانية، ممسكة بالسجات :
- إن زكي بك، رئيس التشريفات الخديوية، قد أظهرنا على سير العمل، فحين يفرغ الجمع، قبيل الأصيل، من طعامه، يتأتى للموسيقات أن تصدح، وللمغاني أن تنشد، وللموكب الضخم أن يتقدم!
وآن الأصيل، فلاح زكي بك، ثم محمد توفيق، فجعل الناس يستشرفون المستقبل في مظهر ولي العهد، ومشيته! ثم أميرة هولندا، ثم ولي عهد الدولة البروسية، ثم أمير هولندا، ثم السير هنري إليوت، سفير إنجلترا في الأستانة، وهذا الأخير بدا متململاً، كأنما حضر نيابة عن عبد العزيز كرهاً، فالأميرال الإسباني، فالأميرال الفرنسي، فالكولونيل الإنجليزي، فرضا بك محافظ بورسعيد.. فالبرنس جورج ولي عهد الهانوفر، وحتى الكولونيل دورنج.
وعلا النشيد الوطني الفرنسي"لا ماغسييز":
Allons enfants de la Patrie, Le jour de gloire est arrive!
انهضوا يا أبناء الوطن.. فقد دقت ساعة المجد!
حتى جاء على ذكر:
vos projets parricides Vont enfin recevoir leurs prix!
أي مشاريعكم القاتلة سوف تجد أخيراً جزاءها!

وتبدى مشروع حفر القناة، الذي جرت فيه تضحية بآلاف العمال، من جراء العطش والانهيارات الرملية، والأوبئة ثم مشهد أولئك الفتية الأقوياء وهم يسوقون، حاملين قلة ماء، وكيس خبز جاف، إلى ساحات الحفر، منهكي القوى - تبدى واحداً من تلك المشاريع القاتلة، التي تتوعد الأهزوجة أصحابها! على أن الحضور من بين الفرنسيين، أو العارفين بالفرنسية انبروا هاتفين بحناجرهم، مرددين، على جهل، حتى قولهم:

Nous aurons le sublime orgueil De les venger ..ou de les suivre

أي من فخرنا السامي أن ننتقم منهم أو نتعقبهم..!

ولاحت ألوية النمسا والمجر، كأنما تتحدى اللواء الفرنسي، عزيز الصاري، ثم الخديوي إسماعيل، فأوجيني، ففرنتز يوسف، ففردينان دي لسبس، فالأرشيدوق فكتور النمساوي، فمجلس إدارة القناة، وتبدى التذمر على وجوه ضاقت بإجراءات المراسم، حتى كان لظهور الأمير عبد القادر الجزائري الذي تراءى رافلاً في رداء أبيض أنيق، أثراً طيباً، ووقعاً حسناً، وقال قائل:

- لقد دعته الحكومة الفرنسية إلى حضور الاحتفال، اعترافاً له بالفضل، في حماية المسيحيين، أيام المذابح السورية.

وتابع يصف مذابح 1860م في لبنان والتي امتدت لهائبها إلى دمشق وزحلة وجبل عامل :

- إن الصراع المرير بين الموارنة من جهة، وبين المسلمين والدروز من جهة، أفضى إلى الخراب، لقد زاد عدد القتلى من المسيحيين على عشرين ألف، ثم أن نحو ثلاثمائة وثمانين قرية مارونية قد تهدمت، وخمسائمة كنيسة قد دمرت! وكذلك كانت خسائر المسلمين فادحة، متى يحل السلام بين الطوائف؟!
وقالت ساكنة في طوباوية :
- عندما يسود الغناء بدلاً من المدافع والرصاص.
وقال ثانٍ وكان الحضور متخماً بألوان العبقرية في الثقافة والرئاسة والفن:
- إن العرب يحضرون والخراب في ركابهم، كما قال الأمازيغي ابن خلدون في مقدمته!
وقالت العالمة حليمة :
- ما أبهى وجهه المكسو بالجلال! (تريد الأمير عبد القادر)
وظهر من بعدئذٍ طوسون هزيلاً، واهناً ثم زمر المدعوين، أفواجاً أفواجاً، ومن بين أولئك الأواخر، كانت ساكنة، وفرقتها من العوالم.
ولاح زكي بك رئيس التشريفات الخديوية، أخيراً، فقال وهو بين أصحاب التيجان والنياشين، غريباً :
- أما وقد انتظم العقد، واكتمل النصاب، فلنأذن للمدافع أن تدوي، لتجوب آفاق الأنام النيام!
وعلى ذلك استحال الساحلان الإسلاميان براكين فرح وجذل، وتبدت - رغم المدافع والنيران - مناسبة وفاق، بين المشرق والمغرب، قلما جاد بمثلها زمان صراع على المال والرجال،

واقتتال على النفوذ والثروة. وتبوء مشايخ الإسلام موقعاً، بعد صمت وجيز أعقب ضرب المدافع، فابتدأوا بتلاوة الأدعية * :
"الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها سبلاً فجاجاً، وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث نبتاً وإعادة وإخراجاً. دحاها بقدرته فكانت مهاداً للعباد، وأرساها بالأعلام والراسيات والأطواد، ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد، وأطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر..".
وراحت ساكنة تنصت إلى نبض الوعظ الكامن، وفي إنصاتها استئناس بصوت رخيم، لأبيها عبد السلام، كما للوعاظ الأتقياء، مثله، يتناهى إليها، بين الفينة والفينة، حين يشاء أن يزجرها، حاداً، وحين ينصحها، رشيداً، وحين يدعوا لها، حنوناً، وحتى تتمثله في خلواتها، حاضراً، بسمته الديني، وعمامته! بيد أنها سرعان ما أحست بعد هذا الاستئناس فزعاً، فتذكرت عهد الاضطهاد الأول، وأنين بلل الوسائد، واعتراف حازته بعد جفاء، ثم أسرة ناصبتها شر العداوة، وتابع الشيخ الإمام إبراهيم السقا في خطبة وجيزة، لم يسع المجال لأن تترجم إلى لغات العجم الحاضرين، حتى قوله :
"وأما إسماعيل فإليه فضل إبراء الدين بعد اعتلاله، وإغماد سيف العدوان عند انسلاله، وإصلاح الأيام بعد فسادها، وإيضاح طرق البر عند انتهاجها..".
وساد الملل لدى أسماع سئمت من إسهاب لا يضيف، ومبالغة لا تنفع، فارتؤي إنهاء الخطبة (خطبة التبريك)، ودخول أحبار الكنائس، منشدين نشيد الشكران اللاتيني المعروف بـالتدثيم Te

---

Deum Laudamus، المنسوب إلى القديسين أمبروزيس وأغسطينس:

"اللهم نمدحك.. ونعترف بك.. وكذلك الأرض تسجد لك.. أيها الرب السماوي.. ها هو ذا ملائكة السماء، وقولتها تتمجد الكاروبيم والساروفيم يصرخون نحوك - صراخاً متصلاً ثلاثي التقديس قائلين: قدوس، قدوس، قدوس، الرب إله الصباؤوت".

وجالت ساكنة ناظريها في شفاه المرددين من جموع المسيحيين الخاضعين، وارتأت من يرفع بيديه الصليب، ومن يعقد حاجبيه خاشعاً، ومن يردد هامساً والدمع يشق على خديه السبيل، ثم هذا الذي ينفعل صارخاً:" أنت ابن الآب السرمدي.."، وتساءلت العالمة حليمة خفيضة الصوت، خلافاً لطبيعتها المنفعلة، المندفعة :

- ما عسانا أن نفعل؟

وقالت ساكنة مهمهمة :

- كمثل الإمبراطور فرانسوا جوزيف! نحرك شفتينا مع القول اللاتيني! فإذا صمتوا صمتنا، وإذا تحدثوا تحدثناً.

وحتى إذا انتهى العزف الجليل، والإنشاد الخاشع، تبدى المونسينور باوير، رافلاً في رداء أرجواني، وقبعة مربعة، أثارت في الأجواء الجادة ضحكات خافتة:

- وليأذن لي الحضور بأن أثني على الإمبراطورة الجسورة أوجيني، وفرنسا الكريمة، وأما حفل افتتاح القناة فهو، بغير ادعاء، أكبر أعياد الجنس البشري، وأكثر ساعاته مهابة!

وأبدت ساكنة شيء من الضجر بقول قصر الجسارة على امرأة، غيرها، وقرن الكرم بدولة، غير دولتها، ولكنها ولهيئة

الرجل الغريبة لم تأخذ حديثه على محمل الجد. وقالت في استنكار :

- أوجيني؟! ولقد أتساءل: هل حلت مقام مائة وعشرين ألفاً من المصريين الموتى في سبيل حفر القناة، فلم يستدل على جثمانهم إلا في الصحاري، أو تحت المياه؟! والحق أن إلى هؤلاء تنسب الجسارة لا إلى الذين هبطوا إلى المسرح بعد اكتمال العرض!

وراحت في غير المقام، تهمس، من أغنيات الحفر، وديعة النفس:

- "على الكنال جالس .. تحكم وبتوالس .. دمك خفيف خالص .. وروح يا الغريب ..".

والتقطت منها حليمة طرف الخيط، فقالت سليمة القصد، رديئة الأداء :

- "تانى معايا تانى .. شيل العلم تانى .. فوق الصارى تانى..".

وكانت تشتاق إلى أيام آنست فيها وحشة السخرة، العاملين في القناة، تحت ظرف الحر اللافح، وفي صحبتها عازف على آلة "الطنبورة"، وتذكرت ساعتئذٍ كيف تعاظمت دهشتها حين أخبرت بأن أوتارها الحادة مصنوعة من أمعاء الحيوانات، وقطن الكتان، وشعر الصيد والصلب، وأن أصلها - قبل انتقالها إلى بورسعيد والسويس - نوبي يعود إلى ضفاف النيل، وبيئته السمراء. وانسحب المونسينور باوير من موقع المتكلم، بعد أن أثنى على إسماعيل، وسط صخب التصفيقات.

ثم علا بالمديح على باوير هتاف مستطير، فبدا بعد خطبة التبريك، ونشيد الشكر، فرعاً هزيلاً لشجرة عظيمة، ونوراً خافتاً لضياء جليل، وتنزيلاً بشرياً لتجليات سماوية.

وإذ المآدب مدت، لست آلاف من المدعوين، عليها الأطعمة والأشربة، ناطقة بالبذخ، مستهينة بفضيلة الاعتدال، نهض من الفرنسيين واحد يقول لصديقه الفرنسي وبطنه منداحة:

- إني قد أكلت ما يضاهي ثروة ثلاثة فلاحين مصريين!

وانزعجت ساكنة، كما انزعج الحضور، من هيئته اللامبالية، ومن يديه العابثتين وهما يدوران على صديريه، ثم جاءت الأنباء مع الثامنة ليلاً، يتلوها رسل مجهولون :

- إن مشروع حفر القناة لن يستحيل مولوداً حياً، أوجيني انصرفت إلى بلادها، ثمة صخر هائل وقف في وجه السفن، حريق نشب في ستين بيتاً بالإسماعيلية، مهندسو الشركة قد هربوا، دي لسبس فقد رشده.. إلخ إلخ..

وقالت ساكنة مأخوذة :

- لم يبقى إلا أن يقولوا لنا بأن غداً لا نهار له!

وقالت حليمة بلسان الحكومة :

- فلتنقشع سحائب الأراجيف وإلا اقتلوا من يثير الفتن!

وراحت ساكنة تجول خيم العربان، وعشش الفلاحين، وأكوام الأمم السودانية، على هاذين الشاطئين، تطمئن أولئك الفزعين من أنباء الحرائق والخيبة، بغناء تنشده في حسن، وإصرار على الحضور والظهور، وقالت في تحدٍ :

- إن فرت الأمبراطورة ذات الأصل الأندلسي (تريد أوجيني) من ساحة اضطراب، فأهل البلاد أولى الناس بالبقاء فيها.

وتبين ما وراء الأنباء من زيف وافتئات، وقبض على هؤلاء الرسل المجهولين، فسوقوا إلى حيث تواروا عن مشهد الحفل، تشيعهم نظرات الشفقة، على مصايرهم، و ترثى لألوان من

النكال تتحينهم. وتساءلت ساكنة كأنها أرادت الإشارة إلى أنه لا دخان بغير نار :

- وما أصل تلك الإشاعات التي سمعناها بعيد العشاء؟

وأجبيت :

- يعزى أصل المسألة إلى المسيو دي لسبس، الذي أراد أن يجري مقاييس عميقة، يطمئن بها إلى خلو الترعة من كل عائق، إن حسابات خاطئة لديه أحدثت ارتباكاً لدى القائمين على أمر الحفل، فاضطروا إلى استمرار مظاهره، بينما لا تزال الترعة واقعاً غير جاهزة للملاحة، ثم أن هناك من نفخ في هذا الارتباك الحاصل نفخ الكير، حتى انتهى إلى بث الذعر، على النحوا الذي ارتأيته!

وقالت تريد تنظيم الحفل :

- هذا جزاء أن تترك الأمور على غير نظام، وفي غير طريق!

وعلى هذا، أقيم، في سراي إسماعيل، مرقص اشترك فيه أصحاب التيجان، فكانوا، وللعجب، أكثر الخلائق تفاعلاً مع الإيقاع.

وعجبت حليمة من رؤية إسماعيل الوقور، متمايلاً، فقالت:

- والقائلون، بغير علم، بأن الرقص شأن الراقصات، ثم السكارى من الرجال، ما جوابهم حين يرون أولاء الملوك الأجلاء ناسجين على منوالنا؟!

---

* الدعاء مقتبس من كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، لابن بطوطة.

## 18

لم يكن إسماعيل وحده من ضرب بقواعد الوقار، عرض الحائط، في مرقصه الذي أقامه في سراياه الجليلة، في تلك الليلة الصاخبة، الموافقة يوم الثامن عشر، من شهر نوفمبر، فهذه أوجيني متبخترة، وفرنتز يوسف معربد، ودي لسبس لاهٍ، ولولا الأمير عبد القادر الجزائري الذي بقى متفرجاً، بغير مشاركة، لكان يوم هزل شامل، وانفلات عام، وهو - مع شراكة بعض الملوك وتحفظ آخرين - يوم بقى في ذاكرة العوام، الماثلين تحت المظال وفي الخيام عجيبة ارتأى بها الدهر أن يقرب إليهم ملوكاً كانوا كالنجوم البعيدة، وأن يألف إليهم رؤساء كانت سيرتهم تحرك قلوبهم خيفة ووجلاً، وقالت ساكنة تقصد الأمير الجزائري :

- من الخير أن يلتحف المرء بالهيبة والجلال! (وهنا مررت ناظريها حتى استقرا على إسماعيل، فبدا محركاً ذراعيه، منشرح البال، متناقضاً مع الأول)

وقالت في تأمل، محدثة واحداً من كبراء الحفل :

- إن إسماعيل يجامل ملوك العالم، على حساب هيبة منصبه، لعل نزاعاً يتراءى في الأفق بينه وبين السلطان العثماني عبد العزيز، بعد أن أقام أكبر حفلة على أرض عثمانية، في التاريخ المعروف، فما أحوجه إلى ود يكتسب بإظهار الظرف، ولين الطبع معهم، ومجاراة لجذور الثقافة، ومظاهرها!

وقال الآخر، منفعلاً:

- أوجيني لن تستمر طويلاً على العرش الفرنسي، هكذا يبدو للعارفين باضطراب أحوال ديارها، وأما نابليون الثالث فلا يصح أن يكون سنداً في معركة طويلة، خصوصاً وأن النفوذ الفرنسي في العالم في طور التقلص، ولكنه الرهان الخاطئ!
وزفر دخان سيجارته فكونت في الهواء، أشكالاً حلزونية، وقال صارماً، عنيد الوجه:
- ثمة احتمالان لا ثالث لهما! أولهما أن تكون الترعة الجديدة سبباً في توطيد الصلات بين مصر والسلطنة العثمانية، من حيث تزداد المصالح المتبادلة وحركة التجارة عبر هذا الاختراق في جيولوجيا الأرض، والآخر أن يقطع بإنشاء الترعة الاتصال المادي، بين الكيانين، فتقع العزلة التامة!
وأخذت ترقب أوجيني وهي تقدم ذراعيها إلى الأمير البروسياني فردريك غليوم، فهالها أن يستعر الصراع، مرات، بين قادة عالم، يرقصون ويطربون.
وأشير على فرقتها بالانضمام إلى أجواء المرقص، فإذا اقتربت حليمة من مداه ألفيت نفسها منجذبة إلى النغم، بدافع خفي، يكاد يسوقها بإرادته إلى الحركة الإيقاعية، وكذلك فعلت الباقيات، تباعاً. وقالت لها حليمة :
- حتام تنتظرين يا ريسة؟ هلم.
وتدانت ساكنة إلى هناك فكانت تغني، متخذة الأمير عبد القادر، بما له من بياض وجه كغرة الفرس، ولباس فخم، واستقامة سلوك، حاجزاً، للحيلولة بينها وبين الأجانب، المتكاثرين، وغنت من أبيات ابن الفارض:
فَلا تاركاً قَلْبي الأَسير وشأنهُ.. ولا جامعاً شملي فَمِنكَ تُقَرِبُ

ثم ما لبثت تحيل الغناء الفصيح عامياً، لما أبصرت مخالفة المقام لحال الغناء الرصين، وعلى هذا، طفقت تهبط بحال الإنشاد، مخفضة العُرب الموسيقية، منتقية ما سهل من معانيه، باعثة في هذه النفوس الضجرة بمتاعب الولاية والحياة، آمالاً لها صوت ورنين! وحاولت عبثاً أن تحتفظ بجديتها في وقت أبصرت إسماعيل بين درداب الطبول، ونفخ المزامير، يحرك رأسه وبطنه، فحانت منها، بعد إخفاقها، ابتسامة، أضرت بالنغم، الخارج من فيها، أول خروجه، مضبوطاً، خاضعاً للمقام!

ورغم سعة السراي أحست أن قلبها يضطرب، وأن محيطها المتخم بأنوار الألعاب النارية، والحراقات، والزينات، والنجوم، يعذبها. طاف في خيالها مشاهد الفقر المدقع، فأرخت لخاطرها العنان في مآسي الأشقياء، وانبرت تغني جسداً لا روحاً، وكانت فرقتها تستخدم الآلات المصرية: من الكمنجة المصرية، والعود، والقانون، مروروا بالناي، والقيثارة، والربابة (التي كانت تؤثرها على الكمان لأنها مصرية بحتة)، والزمارة، والنقارية، والسنتير، وانتهاءً بالدربكة، والصنوج، وغيرها، فلما طلب إليهم أولياء الأمر الكف عن العزف، وترك المغنية تنشد وحدها، كانت أقرب إلى مقاتل جرد من سيفه ودرعه، وانزعجت لما عرفت عذراً فاق الذنب قبحاً :
- إن حدثاً عالمياً - كافتتاح القناة، ومرقصاً يشترك فيه كبراء العالم، لا يليق به ما هو شعبي من الآلات! ولقد يسمح بالكبير التركي!

وكانت نظرة ازدراء أبداها زكي بك رئيس التشريفاتية للعوالم، وشت بما هو أكثر من ملائمة مفقودة، ومحلية لا تناسب العالمية، من أمور تتعلق بالمظهر، والملبس، المغايرين للصورة المثالية، في الحضرة الملكية. بمن تأنس إذن؟ هكذا حاولت غريبة النفس، أن تبحث عن أسباب للألفة، وكانت السراي وشوارعها الملحقة تحوي على مائة ألف نفس، منهم من تسلق الأسوار العالية، بين الداخل والخارج، ناقلاً إلى جموع تنتظر، آيات النعيم المنطوية، المترعة بجلال الثروة، قالت لما رأتهم :

- الشياطين!

ووجدت فيما رأت عزاءً، وترياقاً لضميرها المعذب. وجاءت استراحة، فقالت لحليمة :

- إن تكلفة مجيء هؤلاء الضيوف جميعاً (تريد ملوك العالم الحاضرين)، وإيابهم، في الدرجة الأولى، ثم نقلهم من بلد إلى أخرى، على البواخر النيلية أو السكك الحديدية، كل هذا، على نفقة الخديوي إسماعيل!

وقالت حليمة ممسكة بهذه النسخة من تاريخ رسمي خاص بالأعياد والاحتفالات، مطبوع على جلد فيل، مزين بالرقوش، معد للمناسبة خصيصاً:

- لا عجب والحال هذه أن يتكلف الرجل الملايين الإنجليزية في سبيل نيل مسعاه! على أن مشروعاً قد تأسس على جثث المصريين لا يمكن أن يحمل خيراً.

وقالت العالمة كوثر، ربة العود في فرقتها، ثملة بشراب نبيذ شاتومرجو الفاخر:

- ألا ما أبهاها من ليلة رائقة! لم تحملن أنفسكن وزر إسراف الأكابر وسخاءهم؟ هل نصبنا الرعاع يوماً للدفاع عنهم؟ أوليسوا أول من يزري بمهنتنا؟ ثم ها هم أولاء كالموج، حين يموج، فوق الأسوار، وفي محيط السراي، آتين من كل فج، وإلى كل سبيل..

ونهرتها ساكنة من موقع الأسطوية، فقبلت الثانية تعنيفها كريمة الخاطر، سمحة النفس، بتأثير الخمر، وقالت الأولى :

- فإذا لم يكن لأجل الفقراء، فلأجل خزانة الدولة!

وقالت كوثر في إصرار على التجاوز:

- وحتى هذه فمن شأن الخديوي النظر فيها لا نحن!

ومكثت ساكنة ترقب الهزع الأخير من ليلتها، تترصد مواضع النجوم، ودبيب الحشود، وحركات الأمراء، وانفلات أهل السراي، ولغط الخدم، والوقت يمضي ولا يمضي! همست وفي الأجواء نسمات باردة:"متى ينبلج الفجر، ويتفرق الجمع؟!"، أعادت الكرة، عانقت الماضي، تكلفت الابتسام، اللعنة! أين المفر؟ ولاحظ الخديوي إسماعيل تقلب أحوالها، فأشار إليها أن تعال :

- ما شأن ساكنة هانم؟ إن ليلة كتلك لا يزري بها قط شيء إلا أنها من صنيعة البشر!

قالت بصوت يقطر رهافة، مطرفة الجفن :

- أشفق على القاعدين فوق الأسوار! أولا ترى جلالتك أن نسمة وانية أو حركة ساهية في مقدورها أن تقتادهم إلى حتفهم؟

وقال وفي يده نبيذ ميدوك، محولاً جسده إلى ناصيتهم في براعة :

- وأولاء الرابضون، هناك، قد تعجبين، حين تسمعين قولي بأني أحسدهم، كل حسد، إذ هم في غير احتياج إلى تكلف، ولا إلى تحمل مسؤولية قرار!

ثم وهو يعيد إليها ناظريه المرفوعين على الدوام :

- ثم هم فوق الأسوار كأنما ملكوا مشارق البلاد ومغاربها!

وحرصت على تذكرته بحديث اللوردپلمرستن حين قال إن نفاذ مشروع القناة من شأنه أن يضطر إنجلترا إلى امتلاك مصر، قالت بعيدئذٍ:

- ثم القناة! أليس يخشى أن تستجلب الشرور؟ وكم من نوايا نبيلة تخرجت عليها بلايا، وانبثقت منها رزايا، ما أنزل الله بهما من سلطان!

وقال مأخوذاً، بينما تقطر من إصبعه حبيبات من النبيذ الأحمر، الفرنسي:

- وأطماع الإنجليز كانت، وسوف تظل بغير نهاية، منذ كانت حملة فريزر إلى مصر، في طلائع القرن الحالي، والتي، كما هو مستقر، تصدت لها قوات جدي المغفور له، بعدما أعد لها عدة السلاح الواجبة إعدادها في كل زمن!

## 19

بعد سنين ثلاثة..
قضى إسماعيل ليلته في قصر ساكنة بحي الخليفة، فطفقا اثناهما يلعبان النرد (الطاولة) في غير تكلف، حتى إذا اقترب الفوز من ساكنة، جعلت تنشد الخسران طمعاً في رضاء الخديوي الأعظم! وقد اعتادا التسامر في القاعات ذات الطراز العربي، بين زجاهها المعشق الملون، وتحت أسقفها الخشبية المزخرفة على طراز الباروك، وقال لها وهو يرمي بالنرد:
- وليلة أنشدتي فيها مع عبده فطربت لها القاهرة الخديوية وخرجت على بكرة أبيها، ما أبهاها!
وقالت:
- والعجيب أننا في خضم نشوة الابتهاج سمعته (تريد الحمولي) يقول مغمغماً بينه وبين نفسه: إن الله لا يحب الفرحين، دوام الحال من المحال، الدنيا غدور، الدهر عثور!
وقال :
- وبعد أيام يأتي تذكار عيد الجلوس السنوي بعد زمان مر كلمح البصر، فإذا الحياة زوج خئون، والدهر على عجل، فلا بأس أن يحتاط الحمولي لما هو منتظر، وهؤلاء القادمون والذاهبون، وليلة بعد ليلة، وصراع بغير غلبة، وتردد، وتشتت، ثم خفوت، وتلاشي في عباب الكون! وماذا تحمل أيها القدر من حوادث الليالي؟ وماذا تخبئ الأيام في بطونها إلا مباهجاً ومبكيات.

وشغلها حديث إسماعيل عن اللعب حتى لقد تحقق لها الفوز عليه سهواً، فقالت تريد أن تخفف من وطأة انتصارها في النرد:
- وصالح مجدي بك له في تشريف جلالتكم لمنزل أبو بكر راتب باشا أبيات، أرى أنها تطابق حالة شرفت فيها قصرنا بقدومك، هلا ذكرتها لك من سبيل الاقتباس؟
وقالت بينما تحدق إلى عيني الرجل في نبرة شذت عن سياق الاقتراح :
- ولولا عجزي عن تنظيم القصائد لألفت غيرها.
وقبل إسماعيل عرضها، فقالت :

لك السعد وافي بالعلى في مواكبه | ومنك دنا بدر الهنا في كواكبه
وفزت بتشريف عزيز لمنزل | أضاءت لآلي جيده بمواهبه

وإنها كذلك حتى آخر الأبيات:

وبشرى لمجدى حيث قال مؤرخاً | لقد زار إسماعيل منزل راتبه

وزار إسماعيل طيف البهجة على كونه مطلعاً على الأبيات عينها من ذي قبل، وطفقت تهنئه بالجلوس على تخت الخديوية المصرية، وقال :
- لقد صدقت عزيمتي على أن أزف أبناءي الثلاثة توفيق وحسين وحسن إلى الأميرات أمنية، وعين الحياة، وخديجة..
واجتهدت ساكنة في التعرف على أنسابهن دون سؤال إسماعيل الذي قد يئول جهلها بهن على غير ما يستحب: فأمنية فيما تذكر هي بنت إلهامي باشا بن عباس الأول، وعين الحياة بنت أحمد باشا بن إبراهيم الأول، وخديجة بنت الأمير محمد علي الصغير بن محمد علي باشا.. وقال كأنه يتذكر شيئاً :

- وأختهن الأميرة فاطمة هي الأخرى سوف تتزوج بالأمير طوسون بن محمد سعيد! وإني أروم إقامة الأعراس الأربعة ابتداءً من الخامس عشر من يناير، وسوف نجعل لكل عرس منهم عشرة أيام، وهكذا نرمي بثقلهم (يريد الأبناء) رمية واحدة في نهر الحياة الزوجية!

قالها ضاحكاً حتى تجلى في وجهه استبشار، وقال :

- وإني أحب طوسون حباً أبوياً خالصاً ليس فيه للنفس مأرب. ولقد تسألينني عن السبب؟ وأقول إني أردت بعنايتي به أن أخفف عنه وطأة التوعك المستديم، المنتابه منذ نعومة أظافره، إذ حدث أن خادماً قد فتح الباب يوماً في سرعة وشدة، فصدمه الباب في جبهته حتى وقع الصبي - إذ ذاك - مغشياً عليه، وفر الخادم الرعديد مخافة العقاب تاركاً الصبي في غيبوبته فاقداً الحواس، ومكث طوسون على حالته تلك بضع ساعات حتى باغتت هيئته الطريحة مربيته، فلم تعد تجديه الأدوية لتأخرها عنه، وظل الصبي حتى يومنا واهناً، هزيلاً، مرتج الدماغ!

ولم يفتأ وجه إسماعيل يتقلص - وهو يروي تفاصيل الفاجعة - حتى بدا وتراً مشدوداً، وقالت ساكنة :

- وزواجه بفاطمة هانم (تريد طوسون) سوف يعيد إليه جزءاً من عافيته وبهجة روحه.

وقال إسماعيل في سمر :

- هذا إن كان في الزواج بهجة !

واستتبع آسفاً :

- وفي سبيل أن أجيء إلى هنا متحاشياً من غيرة الحريم فإني مختلق الأقاصيص، مبتكر المعاذير، وحتى لقد صرت من المتعللين كل يوم بعلة جديدة !
وتأمل في زخرفة القاعة وقال:
- إنهن يعبن أيضاً علي الإكثار من الأزواج، والاستكثار من الجواري!
وكانت ساكنة تسمع، هنا وهناك، دون تحقيق منها أن سرايته تحوي على ألفي جارية، من البيضاوات، والسمراوات، والحبشيات، وأنه بلغ من حرصه على إمائه أن أمر بمطاردة من يسترق إليهن نظرة، ولعله تجلى لها بين عزمه على إبطال مشروع الرق، وبين إكثاره من الجواري، ما يصح أن يثير الريبة في صحة إخلاص شعوره إزاء العبودية، وما ينسب من تصرفه إلى الكيل بمكيالين، بيد أنها آثرت درءاً لأذى ينزل بها أن تحجب عنه تيار خواطرها هذا.
وتبدت أمارات الإنهاك على وجه الخديوي، فقالت ساكنة لما أحست حاجته إلى أيام يستنيم فيها للراحة، ويسكن إليها:
- لماذا لا تقصد جلالتك إلى الإسكندرية؟ وهنالك تنعم إن شئت لأيام بعيش ناعم ظليل..
وقال منقبضاً :
- أنبأني منجم في حداثتي أني أموت فيها، وذلك ما يحملني على كره الإقامة بها! أتعلمين أني ما كنت قط على ظهر سفينة تمخر بحرها المتوسط إلا وتخايل لي شبح الموت ماثلاً؟ فهذا قلبي يدق، وهذه أنفاسي تتدافع، وذاك جفني يرتعش..

وتساءلت لما رأت في قوله تعارضاً مع روح غربية لاتزال تتركز مساعيه الحثيثة في مقاربة أهلها، تزري بالغيبيات، ولا تعترف إلا بالملموس:

- أتصدق جلالتك في قول العرافين؟

وقال :

- نعم، ولأجل ذلك لا أقدم على عمل ذي بال أيام الخميس!

وجاء إليهما العشي باشا (الطاهي) الأسطى إبراهيم بآنية العشاء الذهبية، الملفوفة في الأقمشة، المختومة بالختم الأحمر، فجعلا يأكلان الطعام.

وأتى عيد الجلوس فإذا العاصمة قاعدة قائمة، تضج جنباتها بحياة باقية على الدهر، وتجتاز شوارعها المواكب الفخمة، والعربات الفاخرة، والرايات والأشاير، والطبول والزمور، وجماعات أصحاب الرتب والنياشين. وهؤلاء أرتد بريق ألبستهم الذهبية الساطعة على عيني ساكنة بينما هي تتابع حركتهم من شرقة قصرها، وأخذت الموسيقات تصدح بأنغامها الشجية، والمدافع تدوي دوياً متعاقباً كأنها نذر القيامة! وهبطت المرأة إلى دنيا الشارع تجول السرادقات: سرادق الخديوي، وسرادقات رجال الحكومة، ثم تطوف الخيام والصواوين فتتلو الصلوات مع التاليين وتقيم الأذكار مع القائمين، ثم إنها أبصرت عشرة آلالاف درويش أمام شرفة قصر عابدين يصيحون في لغط ويعبثون في غير مبالاة، أبصرت حركتهم المتماوجة في انسيابها ساعتين كاملتين، حتى إذا جاء المساء كانت الأسمطة توزع على الفقراء، فأكلت منها ما لذ وطاب

تريد أن تتذكر جدب حياتها الأولى، وشقاء الأيام الوالية. ثم أشعلت الصواريخ والألعاب النارية تنشد أن تستحضر روح الطفولة المطمورة تحت ملهيات الكبر!

وانقضى يوم الجلوس، وابتدأت أعراس الأمراء وأيامها الأربعون، فإذا شوارع العاصمة المهمة - المفضية إلى القصر العالي وسراي الجزيرة وسراي القبة وغيرها - مزينة بالتحف والفوانيس.

الخامس عشر من يناير 1873م
على مهل، مختالاً طرباً بذاته، تحرك الموكب بالهدايا الموضوعة في الأسبتة المكشوفة، فوق عربات مكسوة بالقصب، على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والفضة، يغطيها شاش فاخر يمسك به العساكر من أطرافه الأربعة، ويتبعهم الضباط مرتدين ملابساً رسمية، مشهرين السيوف في أيديهم، تخفرها - الهدايا - صفوف الفرسان بزيها العربي، وتحيط بها آلاي بيادة بأكملها بملابس بيضاء ناصعةكالثلج، وسألت ساكنة جمهور المحتشدين بصدد الهدايا وكنهها فأجابوا صوتاً واحداً:
- خرجت من القصر العالي في سبيلها إلى قصر القبة، إنها هبات ممنوحة من والدة إسماعيل وأزواجه إلى الأميرة أمينة هانم زوج ولي العهد.

وعبثت الظنون بعقول المتفرجين، فذهبوا بخيالاتهم في تفسير تلك الهدايا المخفية تحت الستار كل مذهب، حتى جاء واحد بالخبر اليقين :

- سألت العسكري فأجابني: مجوهرات سنية، قلائد ماس ساطعة من نوع "البرلنتي"، ثمة مناطق من الذهب الخالص، أقمشة مطرزة باللؤلؤ..

وبدا الصمت على الرجل وسط الأسماع المتلهفة في غير الأوان، حتى قال كالمتذكر:

- وزمرد في حجم البيض!

وأَضافت ساكنة التي خبرت هدية إسماعيل قبل غيرها :

- وسرير من الفضة الصب الخالصة، محلى بماء الذهب الإبريز، وعواميده الضخمة مرصعة بالماس، والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز! اختاره إسماعيل هدية لنجله، شبيهاً للذي منحه للإمبراطورة أوجيني في أثناء إقامتها بمصر.

وسألها السائلون عن مصدر المعلومة، فأجابت :

- إن مصدرها الخديوي إسماعيل نفسه!

وهنالك التفتت إليها العيون فسرعان ما أدركت أنها المغنية المعروفة، وسرت همهمات بين جموع لا تدري ما تصنع؟ وقال واحد :

- أعذري تغافلنا عنك، فالزحام لم يعط لأحد فسحة انتظار شأنه لما يلتهم الأشياء الجميلة!

ثم استدار عنها، وأخذ يعرف بها المحيطين به، كأنما عثر على الجوهرة يبن الركام:

- إنها ساكنة بك وإليها يعزى ظهور الغناء الحديث!

وسمعت ساكنة من يقول من المتفرجين :
- وضعوا الفوانيس والشموع فأحالوا الظلام نهاراً! ولقد خلنا أنفسنا - وسوف نظل لمدة ستة أسابيع قادمة على حال مماثل - كالمنتقلين من منطقة مدار الشمال إلى منطقة القطبين صيفاً، حيث لا تغيب الشمس عن الآفاق لأشهر وأشهر!
وقال ثانٍ :
- ومن ذا يحاسب الخديوي أو آل بيته؟ والحارات على امتدادها تعج بالحائجين وتنطق بالفاقة، فماذا ينفعها ضرب المدافع أو زينة الفوانيس؟
وقال الأول في استهجان :
- تريد أن تحاسب الخديوي؟! وعليك أولاً أن تجد لقمة العيش، ثم تتبوء على الهرم موقعاً تكون فيه قادراً على النظر لغيرك من سعة، صمتاً صمتاً.
وقال ثانيهما في حسد :
- كيف لي أن أتبوء المواقع في دولة البشوات والبكوات التي نورث فيها كالعقار؟!
وجيء بالنحائر فإذا بالرجلين تاركين الجدل، متسابقين إلى الذبائح الموزعة، وحتى لقد نسيا أيهما مع إسماعيل وأيهما ضده!

السادس عشر من يناير 1873م
لم تختلف الهدايا الممنوحة لعين الحياة، وخديجة هانم، وفاطمة هانم، عن تلك الممنوحة لأمينة، اللهم إلا في جموح الخيال الذي يفسر ما تحت الغطاء الفاخر وما وراء سياج الجنود، في كل

مرة، والذي أمسى يتضاعف حجمه ، لغير ما سبب، كأنه كرة الثلج المتدحرجة!
وفي العباسية جلست ساكنة مع المدعويين لسباق الخيول، فغطوا لكثرتهم وجه الصحراء. وتطلعت المرأة إلى راكبي الخيول "الجوكز" من ذوي البشرات السمراء، فسألت عنهم وقيل لها :
- أكثرهم من السودانيين وقليلهم من الإنجليز! ومهما يكن من أمرهم، فمقصف السباق بما حواه من أطعمة وأشربة فاخرتين يغنينا عن التشجيع!
وفاز راكب جواد الخديوي إسماعيل - يدعونه بقباري - متفوقاً على راكبي جياد نظير أغا، وعلي شريف باشا، وآخرين. فقالت ساكنة في سمر :
- لا مندوحة للجياد من أن تنصر الخديوي هنا أيضاً!
وابتهج أولاد الخديوي إسماعيل الأربعة: محمد توفيق، وحسين، وحسن، وفاطمة هانم، بانتصار جواد أبيهم فأخذتهم سكرة الحماسة.

السابع عشر من يناير 1873م
أقيم مرقص في سراي الجزيرة، دعا إليه أربعة إلى خمسة آلالاف ذات من الأجانب وأعيان البلاد ووجوهها، وفي طريقها إليه من عابدين إلى منفذ كوبري قصر النيل في الجزيرة، وفي الطرقات المفضية إلى البستان المحيط بتلك السراي وعلى غصونها، وكذا في البهو الواسع الممتد طول دورها الأرضي،

أبصرت ساكنة ـ في كل أولئك ـ فوانيساً من الورق الزاهر، رقت لها نفسها، وغنت :

يا له غصناً تثنى في رياض السندس

شاقني لما تثنى قد محبوبي الرطيب

وماجت بجموع الحاضرين الراقصة في القاعة الفسيحة، ووجد الشيطان في نفوسهم الأرض الخصبة ليحرك الرغائب الكظيمة، وهنالك التقت ساكنة بأبيها الشيخ عبد السلام، فقال لها وهو يراقب المشهد في مجونه وفحشه :

ـ لقد عصفت الراقصة بجلال ملابس الضباط العسكرية، ووقار الإسطمبوليات، وكبار الموظفين وأرديتهم ذي الأوسمة الساطعة ـ عصفت بهؤلاء كلهم فلم ينج إلا ذوو القفازات البيضاء من الشيوخ أصحاب الوقار!

ووافقته ساكنة وفي نفسها نفور وعجب:

ـ وحتى الكهول يقبلون على الرقص إقبالاً قبيحاً!

وجيء بأربعمائة ونيف من الغلمان (الجارسونات) رفقة رئيس الطهاة فأعدوا للحضور ما أشبع البطون الجوعانة بعد حركتها.

وقالت ساكنة في تفسير تفاعل الضباط:

ـ وهؤلاء الضباط الذين اشتروا ساعة سرور بضياع الهيبة، لديهم أسبابهم: إن وجوههم المنهكة من الأسفار في فيافي السودان ومجاهله، ومفاوز اليمن وأطرافه، ووهاد جزيرة كريت ومضايق جباله قد لاذت بالرقص تخفف به وطأة الحياة وعسرها.

وقال عبد السلام:

ـ لا تعط للباطل ما يوطد به أقدامه!

قالها موسعاً حزامه مقبلاً على الطعام في نهم، فلم تجسر المرأة على مصارحته بترك الشراهة !

التاسع عشر من يناير 1873م
قصدت ساكنة إلى القصر العالي الذي ابتدأت أعياده، ونصبت حول الساحة الممتدة أمامه الصواوين والسرادقات، وشرعت تحدق إلى أسماء أصحابها وكانوا إما تجاراً أو علماء أو قناصل: نظير أغا، فريد أغا.. إلخ، ثم تطلعت إلى الغرض المعدة لأجله: وقف خيري للفقراء، غناء وإنشاد، ألعاب بهلوانية. وولجت الأخير فألفيته مفروشاً بالطنافس العجمية الفاخرة، وكان ثمة مقصفان إلى جوار الساحة الواسعة وقيل لها في شأنهما :
- أحدهما على النمط الغربي، ازدحم كما ترين، بقاصديه، الراغبين في أنبتته العتيقة. وثانيهما الشرقي، خلا إلا من زوابع الهواء التي تحرك كرات القش من أمامه!
وعند وسط الساحة الواسعة، بإزاء القصر العالي، أقبل أرباب اليازرجة بألعابهم المحيرة، ولشد ما دهشت ساكنة لرؤية البهلوان صاعداً على حبله، ثم ناحراً الخروف، موزعاً لحمه على الفقراء! وعلا الهتاف:
- وحتى الأبالسة تحتار في تفسير ما يأتي به اليازرجة من الألاعيب!
وقال الآخر :
- لا ريب أن بهم مس من شيطان مريد.

## 20

أذن لساكنة بأن تدخل القصر العالي دونما نقاش، وإنها لتعامل من حاجب القصر ومستخدميه معاملة حريم الخديوي إسماعيل، أو تكاد، وفي الداخل أبصرت الراقصات من مثيلات: صفية وعائشة الطويلة وسواهما من ربات الفن يؤدين استعراضاتهن. ومشاهير البهلوانية من الإنجليز، وأساتذة الكار من اليازرجة. ولما استمعت لسكينة، المعروفة بألمظ، لأول مرة، وصوتها الرخيم انتابهتها عاصفة الاستهانة بها، وقالت في نفسها :

- "شتان ما بين ساكنة (تريد نفسها) وبين سكينة !".

وكانت ألمظ تغني في دلال :

لازم أهشه دا العصفور.. وانكش له عشة دا العصفور

وابن الأكابر والعصفور.. ع العشق صابر دا العصفور

وقالت الراقصة صفية لها تجاريها، وفي نفسها مرارة :

- وابنة الجواهرجي (تريد ألمظ) لا تعرف من علم النغم إلا قشوره، والعوام يصنعون نجوماً من ورق، ويخالون الأهلة بدوراً. انظري كيف يزاحمنا الراقصات الجدد، أيضاً، في فن نحن السباقات إلى الإبداع فيه!

وقالت ساكنة تواسيها وتواسي نفسها :

- إنها دورة الحياة التي لا بقاء فيها لأحد. تعلو في السماءات نجوم وتنطفئ أخرى. ويزهو النجم الصاعد ظاناً بنفسه الأبدية، ويخبو النجم الهابط قانعاً في ذاته بالفناء.

وقالت صفية غير واعية بحديث الأخيرة، كالتائهة :
- ونعم بالله يا ست !
وقالت عائشة الطويلة:
- من عجب أن الخديوي إسماعيل يقصد إليها (تريد ألمظ)، بين الفينة والفينة، فيلعب معها النرد صحبة حريمه، لا يزال عبده الحمولي يناصبها العداوة.
وقالت صفية :
- ليس بمستغرب أن ينقلب الخصمان أحباباً.
وقالت ساكنة مجملة حديثهما :
- والخديوي إسماعيل في عطفه على أهل الفن أجمعين، يساوي بيني وبين ابنة الأمس. والحمولي ليس إلا رجلاً زرع الأشواك بيديه، ثم اشتكى الألم لما نغزته..
وراحت ساكنة تنصت لألمظ مدة فبدأت الثانية تستميل أذن الأولى، وتبددت سحائب الغيرة حتى حلت الألفة ووقر الإعجاب، وخطر ببالها أن تضم ألمظ إلى تختها في سبيل أن تقلل المنافسين واحداً، وتزيد الأعوان واحداً، واقتربت منها فألفيتها رائعة الجمال، خمرية اللون، واسعة العينين، كثيفة الحاجبين، وقالت :
- هنيئاً لك: صوت أخاذ، وحضور لطيف! غير أن موهبتك في ألح الحاجة إلى من يصقلها ويعنى بها عناية الاحتراف، ثم إن عليك أن تنتقي من الكلمات ما ثقل مثقاله لا ما خف.
وندت عن ألمظ نصف ابتسامة، وقالت :
- والتمرين على الغناء فوق تخت الأستاذة سوف يقيني مواضع الزلل. ويجعلني مهوى الأفئدة وبهجة الناظرين.

وتجلت أمارات المكر على وجهيهما الجميلين، والمرأتان أضمرتا شيئاً وأظهرتا غيره: فالأولى أرادت بضم الثانية إلى تختها أن تجعلها واقعة تحت إمرتها، والثانية قصدت إلى الأدب لا هدفاً في ذاته ولكن سبيلاً إلى التعلم. وقالت ساكنة :

- وقولك لازم أهشه دا العصفور هو آية الخبل، والأحرى أن تدعي العصفور وشأنه!

وضحكت ألمظ من نفسها، وسرت بين الحضور ضحكات مخبوءة، كأنها ترن في صندوق أجوف، هائل، في حجم القاعة، وطلبت ساكنة من الثانية أن تعيد ما تسمعه بصوت حسن :

أسرت الفؤاد المستهام عزيزة.. ملكت قلوب العاشقين بأسرها
جلست على عرش الجمال فأشرقت.. شمس الجمال تضيء ساحة قصرها

فلما انتهيا قالت ساكنة :

- وفي ظهيرة الثالث والعشرين من يناير سوف تخرج العروس الأميرة أمينة هانم من سراي الحلمية، صحبة سمو والدتها خوشيار هانم، إلى قصر ولي العهد بالقبة، سوف تخرج في موكب مهيب. يجدر بك أن تستقبليها عند قصر القبة مغنية ما سبق واختبرناه.

وامتثلت ألمظ للنصيحة، على غير قناعة منها. وقالت مدفوعة بعاطفة ساذجة :

- ولقد أعرف نفسي إليك في مختصر، ما دام صار يجمعنا تخت واحد: جئت من الإسكندرية إلى القاهرة الخديوية، الإسماعيلية، وعملت هناك حيناً في البناء - مهنة أبي قبل أن يستحيل جواهرجياً - فحملت على رأسي الجير والأسمنت،

وحظيت بالشهرة وسط مجتمع البنائين، الذين أنساهم الغناء ما فيهم من الشقاء والحر، وخرجت من النطاق الضيق إلى الآفاق الرحيبة، حتى غنيت في ليلتنا للعصفور، وتفضلت علي بعرض الانضمام إلى جوقتك الغنائية!

وقالت ساكنة وهي تتلمس أوجهاً للشبه بين قصة تسمعها، وبين قصتها:

- وما ينسب إلى كونك ابنة العالم الأزهري الصوفي سليمان الحلبي، الوافد إلى مصر أوائل حكم أسرة محمد علي، المتزوج بمصرية اسمها سلمى. المنجب لأربعة من البنات: فاطمة، وآمنة، وعائشة، وأنت، أهو على سبيل الإفك الذي تتناقله الأفواه بغير أساس؟

وهزت الثانية رأسها في أدب جم، دعاها إلى نبذ المجاهرة بالتنصل الصريح من الرجل، فقالت ساكنة تستبين غامضاً جديداً :

- وعبده الحمولي؟ لماذا استعرت بينكما الخصومة؟ والحق أن في ذلك ما يدفعني إلى التوجس منك!

وقالت ألمظ :

- للأسباب نفسها التي استعرت بسببها المنافسة بينه وبينك: سوق الآلاتية الذي لا يرحم، ثم شاب أسمر متمرد (تريد الحمولي)، اشتغل بالمقاهي حيناً، فجذب إليه الرواد والسميعة، فلما أسس تخته المستقل أراد ابتلاع السوق برمته !

وتابعت في جزع :

- إن نجاحه موصول بشقائنا.

الثالث والعشرين من يناير 1873م
ها هي ذي الأميرة أمينة هانم تخرج من سراي الحلمية، تشرئب لها أعناق الذين جاءوا يهنئونها من عوام الشعب، وأما ساكنة فتوارت بينهم، وإنها مبصرة: موكباً مهيباً يحف المسيرة القاصدة إلى قصر القبة، فلما سألت عن تكوينه أجيبت :
- ثلاثة آلايات من الخيالة: آلاي ذوي الرماح الحمراء والخضراء، وراياتهم المرفرفة وصواريها الفارعة.
وقال ثانٍ :
- وآلاي ذوي الدروع، يتدلى من خوذتهم شاش أصفر وأبيض يلعب به الهواء، كما ترين.
وأخذت تتأمل دروعهم التي تسطع عليها أضواء الشمس وهاجة كالجمر، ووجوههم السمراء ذات التقاسيم الوافية، حتى قيل لها :
- وآلاي ذوي الزرد، وسلاحهم كسلاح الغز أيام الصليبيين!
وهؤلاء كانوا في كسوتهم الفولاذية جامدين، كأنهم قدوا من جلمد، أو من حديد، وحدة واحدة. وانتابتها الرهبة حتى خالت نفسها فوق حافة الهاوية، وقال قائل :
- لقد قلبوا مناسبة العرس استعراضاً عسكرياً فجردوه من بهجته تحت دبيب البيادة وصهيل الخيل، وأين الطبول والمزامير؟ وعلى مشهد الأعين الصارمة لا ضحك ولا سمر.
وانتظرت حيناً تغالب شعورها بالخوف، فجاءت العربات في أعقاب موكب الآيات، وعلى رأسها عربات التشريفة بأخيلتها الثمانية ذات اللوان الواحد، بيضاء كالنور، أو شهباء كالذهب، أو سوداء كالليل. وأما قادة العربات فحوذيون بملابس حمراء

تخطئها شرائب الفضة والقصب، وبجوارب حريرية تصعد إلى الركبتين!

وإذ المرأة مستغرقة في جدائل شعورهم المستعارة، المرشوشة بالبودرة، فإنها خالت نفسها في زمان غير الزمان، كأنما ارتدت قبل عصرها هذا إلى قرنين أو يزيد. وإلى جوار الخوذيين كان الخدم يمشون، وعلى رءوس الاثنين كانت البرانيط الواسعة من ذوات القرنين. ومن وراء العربات مشى الأغاوات بلباس أفرنجي وسراويل ملونة، يمتطون الأخيلة فلا تدري إلى أي وجهة تذهب، إلا قلة من المتحكمين فيها بجدارة. وودت لو أن عزيزاً بينهم من طريق التمني، ولكن باب المستحيلات موصد بالأقفال!
وأبصرت وسطهم شيخاً جليلاً مهيباً، فزادت شعلة الأمل اتقاداً في نفسها المشتاقة، التواقة، وتساءلت: بحق السماء أيكون هو؟
وسمعت أذنها همساً:
- إنه أمين بك، آخر المماليك، الناجي الوحيد من مذبحة القلعة، من بين الأربعمائة والسبعين الهالكين، وصاحب الوثبة الشهيرة.
وقال آخر :
- هل أصابكم الخبل؟ وهل يدع ورثة محمد علي من المماليك من يسير في أعراسهم على صهوات الأجياد؟ وبين المماليك والأسرة العلوية صراع لا قائمة فيه لأيهما إلا بهلاك الآخر.
وقال ثالث:

- الأرجح أنه رئيس إدارة بيت دولة الوالدة خوشيار هانم (والدة إسماعيل) لا أقل ولا أكثر!
وإلى ذاك الرأي الأخير انحاز جل المتفرجين، وأما ساكنة فغدت بعد رجاء الأماني في تيه العتمات، وطفقت تتابع زفتي الأميرين حسين وحسن وحركتهما إلى قصر زوجيهما، بفؤاد شارد كسير! وكم مرة - قبل هذه - سمعته يناديها، وأبصرته يدانيها، فإذا أفاقت لم تجد إلا الخيالات! وتمدد ليلها، وتبدد صبرها، فألقت على الوافدين والذاهبين نظرة عجلى، ثم انصرفت.

إنها تروم إحياء زفة الأميرة فاطمة هانم، ومن أجل ذلك قصدت القصر العالي فاجتازت مع المدعوات فيه بستاناً فسيحاً، أضاءت مصابيحه الكثيرة ذوات الألوان ليلتها حتى أحالتها نهاراً، أو كادت، وسارت - مع السائرات - فوق الطرقة الرخامية، تحفها الأشجار، وغرائب المغروسات، وحتى لقد أعشوشب الطريق الذي عن يمنيها وشمالها، وإنهن كذلك حتى بلغن مدخل سراي الوالدة خوشيار هانم (والدة إسماعيل) حيث كان الأغاوات في انتظارهن، وقال منهم واحد، أجش الصوت غليظه :
- إنما نحن هنا لغرض توصيلكن إلى القاعة الواسعة ذات الرياش الفاخر!
وهنالك ألفيت جواري الحريم، وعجبت من رؤيتهن مرتديات ألبسة الرجال الشرقية، الفاخرة، واقفات بصفتهن حجاباً، وأخريات - من الجواري عينهن - رافلات في أردية بسيطة،

شاهرات في أيديهن سيوفاً لامعة، وعلى رءوسهن هذه الطرابيش الحمراء، ولم تكن دهشتها لرؤية الثانيات بأقل من الأوليات. وأما ثالثتهن فكن في زيهن العسكري الساطع، ووقفتهن، عجباً عجاباً.

## 21

أدخلت ساكنة مع المدعوات إلى حجرة كانت العوالم ترقصن فيها بالساجات، فسرعان ما وعت حقيقة أنها قد تأخرت عن الموعد المحدد، وآية ذلك أن أبصرت العالمة حليمة من فرقتها، وعزفت الموسيقى لحوناً شاجية، فلم تكد تغني حتى جرفها التيار السائر فانسحبت معه حتى انتقلت إلى حجر أخرى، كانت تفتح عليها الحجرة الأولى، وهنالك أبصرت جواري يرقصن رقصاً عجيباً، وأما أيديهن ففيها العصى والسيوف والدرقات!

واجتازت مع الضيفات عدة صالات، فقدمت لها الشربات بأنواعه، والمشروبات بصنوفها، والحلويات بفنونها الشرقية والغربية، وترأست أميرات الأسرة المالكة المائدة الخصيصة بأزواج الخديو وقرينات القناصل، وغيرهن، وجلست إلى المائدة فقابلتها الأميرات بحفاوة لائقة بتاريخها الأثيل، وقالت فاطمة هانم :

- إن ساكنة أسبق منا حضوراً إلى القصر العالي، لا ريب أنها أطلعت على حديقة القصر على عهد إبراهيم بك وأكشاكه المزروعة بالمانجو، وشجر الزينة فيه، هلا تحدثيني عنه في زمانه القديم، القريب؟

وقالت ساكنة :

- صحيح، وإبراهيم بك عقد أول مجالس المشورة فيه، ولأجل ذلك سمي بقصر المشورة، وحتى إذا توفي المغفور له انتقلت ملكيته إلى الحكومة، فمنها إلى عباس حلمي الأولي، ثم إلى

الأمير إسماعيل قبل عهده بالخديوية، ثم إلى خوشيار هانم، بعد ترميمه، كما تعرفن، وأما الغناء فيه أمام الجموع فله لذة تكاد ترتقي بالمنشد إلى آفاق الفردوس!
وعندئذ اقترب إسماعيل من المائدة، وإن لحركته ما يدفع القاعة إلى الارتباك وإثارة الظنون، فهمس في أذن خديجة هانم من دون الأميرات همساً، كحفيف الأشجار، ثم انصرف، وقالت هي متهللة:
- حدث أن أدخلت إلى مدرسة أميرات البيت العلوي، كما تعرفن، فلما رآني إسماعيل وعدني بالزواج من أحد أبنائه شريطة التفوق في التعليم، ويوماً سألني إلى أين بلغت من حفظ القرآن؟ فأجبته بما أربكه: وأذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد! واليوم صدق وعده بأن زوجني بابنه الأمير حسن! وأراد بقدومه إليَّ أن يذكرني بكل ذلك.
وبينما هن يتحدثن جعلت الموسيقى تصدح صدحاً مفرحاً، مزعجاً في آن! وكان ذلك إيذاناً بانتقالهم جميعاً إلى قاعة ذات رياش، لا مثيل له، سائرات وراء الجواري المسلحات، وأخذت سيدة فرنجية تقدم التشريفاتية كل منهم إلى خوشيار هانم، حتى آن دور ساكنة فقالت الثانية صادعة :
- ساكنة بك !
وهمست خوشيار هانم في أذنها :
- وإسماعيل لن يتزوج بمغنية مادمت حية فلا حاجة بك إلى الألاعيب!
وهالها قول المرأة الشركسية فانصرفت إلى الراقصات والمغنيات، متصنعة الابتسام، مطأطأة الرأس، مرتاعة النفس،

وأما خوشيار فجلست في المحل المعد لها، على أرائك ممدودة يغطيها الحرير الثمين.
واكتمل الحضور في القاعة الرحيبة التي اتسعت لمئات الجالسين فيها، ودلفت ساكنة مع المغنيات والراقصات إلى هنالك بعد خروجها، لبرهة، فأطربت السامعين بإنشادها الذي غالبت آثار العجز فيه بخفض الطبقة الصوتية، فلما أتت على ذكر:
يا مالكاً عذبني بجوره إن ملك.. رفقاً بمملوكك لا يحل الظلم لك!
ضاقت هوشيار بما تسمع حتى نفخت الهواء في تذمر، إذ هي تعي أنها المقصودة، المذمومة بالجور، تورية، وقدمت إليهن - المغنيات والراقصات - الهدايا من لدن الأميرات، وكذا أزواج البشوات من أصحاب المقامات الرفيعة في الحكومة المصرية، فقالت ساكنة موجهة رأسها إلى حيث الأرائك الممدودة :
- فلتأذن لي دولة الوالدة خوشيار هانم، بالتغني بمديح الهاديات!
وتململت هوشيار إذ هي تعي ما في التغني بالأميرات وأزواج البشوات في حضرتها من تقليل من مثابتها باعتبارها مالكة القصر وربة الحفل، من جهة، ثم أنها لا تستطيع مقاومته بالرفض لما فيه من بخس لمكانة الأميرات والبشوات، من جهة، وإنها - من وراء هذا وذاك - واعية أن مأزقها هذا صنيعة المغنية، وبتدبير منها، وقبلت على مضض، باعتبار القبول أهون الضررين.

فأخذ الغناء يعلو مديحاً في خديجة هانم، وفاطمة هانم، والبقية، دون إشارة إلى خوشيار من قريب أو بعيد، حتى بعثت إليها الوالدة من يعاتبها، فقالت له لما انتهت :

- إنها عادة "الشوبش" المعروفة (مديح الهاديات)، ولو كانت الوالدة من بينهن ما تورعت عن ذكرها، ثم التغني بمناقبها!

وتجلت العروس الأميرة فاطمة هانم، بهيجة، من أمام الحشد الغفير، ثم بدا الأغاوات ممسكين شمعداناً، اختلفت ألوان الشموع فيه اختلافاً عظيماً، وراحت ساكنة تبصر اصطفافهم - الأغاوات - من أول السلالم حتى القاعة العظمى، آملة أن تعثر بينهم، مصادفة، على مبتغاها البعيد ورجاءها الفقيد. وفرش على الأرض منسوج من ذهب لتخطر العروس عليه. وهنالك طفقت عبارة:"من يحاسب الخديوي؟" ترن في أذنيها ووعيها المثقل بهموم الحارات، وهي لا تزال في القصر لم تبارحه، وانصرفت الراقصات، فلوحت صفية وعائشة الطويلة لها بيدهما، كالمودعتين، ثم انضمتا في فلك العروس، مجدداً، وسط جمهور أميرات البيت الخديوي، وتقدم الجمع خطوة بمحاذاة حركة الأميرة فاطمة التي كانت تمشي على مهل، مختالة، فإذا وقفت وقفن من ورائها، وتقدمتهن ساكنة مع مثيلاتها من المغاني والراقصات، لما سئمن الانتظار، حتى إذا جاوزن صفوف الأغاوات، أطرقن العينين، حياءً، دون اتفاق!

فإذا نظر إلى الأميرة فاطمة المدعوون نهضوا من كراسيهم، تاركين الدعة، وأما هي فتحركت بينهم ناثرة خيريات ذهبية تعلقت برءوسهم وملابسهم، وأمعنت ساكنة الرؤية في محيط

القاعة على كثرة ما حوته من عناصر، وضيق زاويتها: الأميرات، والسيدات، والجواري، والمغنيات، والراقصات، والذهب الوهاج، والملابس المنثورة به، وزهور البرتقال والورد، فخفق قلبها أسفاً، وعاودها السؤال صارخاً: "من يحاسب الخديوي؟"، ثم خلصت إلى نسبة المسؤولية إليه وإلى آل بيته.

والتفتت إلى صدر القاعة فلمحت فوق المنصة العالية ثلاثة عروش مكتسية بالحرير الأبيض، وجلست دولة (الوالدة) خوشيار هانم على العرش الواقع ناحية اليمين، فإذا التقت عيناهما - ساكنة وخوشيار - تبدا منهما شرر الضغائن، وأما الأميرة أم العروس فعلى عرش الشمال اتكأت، وأخيراً أبصرت العروس فاطمة هانم على العرش الكائن في الوسط، وهنالك سمعت من يقول :
- وعلى رأس الأميرة فاطمة تاج من الألماس ثمنه أربعين ألف جنيه!
وقال ثانٍ:
- بل خمسين ألف.
وقال الأول ضاحكاً:
- ومهما يكن، فطاقتك وطاقتي تقصر عن أن تجيء بمثله!
وحام الجواب الأخير في الأجواء المتخمة بغير رد، وضربت الكئوس، وصبت الخمور، وحل مقام انفرط فيه النظام والترتيب، وقالت ساكنة محدثة الرجلين، وكان شأنها أن تتحدث إلى من تجهلهم :

- ولباسها من الحرير الأبيض الفرنسي (تريد فاطمة هانم) أولى بأن تدور إزاءه النقاشات، إذ هو كما ترون مرصع بأنفس أنواع اللؤلؤ والألماس. وله ذيل طويل طولاً مسرفاً يناهز الخمسة عشر متراً!

وهنالك رفعت الجواري ذيل الفستان من وراء الأميرة، رفعنه وهن راكعات، حتى عن للناظرين أنهن مستكينات لإلهة من آلهة القدم الإغريقية، فتبدى الحديث عن التاج ضرباً من الهزل إزاء المشهد الجامع للترف والخضوع، وتقدمت المدعوات يهنئن الأميرة المشمولة بآيات البذخ والنعيم، فإذا هي بعد أن جلست معهن برهة عائدة إلى حجرها.

وقال الخديوي إسماعيل بعد أن ارتقى موضعاً، أعد له خصيصاً، فتحركت البصائر بالقاعة المترامية تواكب حركته، كالنجم تنجذب إليه الأعين المبهورة:

- بين الثامن عشر من يناير من عام 1863م، وهو تاريخ تقلدت فيه مسؤولية البلاد المصرية، وانتشالها من غياهب الأزمنة الغابرة على درب الإصلاح الذي ابتدأه جدي المغفور له، وبين الثالث والعشرين من يناير 1873م، وهو تاريخ يومنا الذي تزف فيه الأميرة فاطمة إلى الأمير طوسون بن محمد سعيد، أقول بين التاريخين عقد انقضى من عمر الزمان، وإني لا أملك إلا الفخر بكل الذي فعلت في هذه المدة، فقد انفصلت بلادي عن إفريقيا، لأننا أصبحنا واقعاً جزءاً من أوروبا، وأما أفراح القصر العالي فسوف تستمر حتى آناء الفجر!

وطرب الحضور جذلاً، فكأنما أصدر الخديوي فرماناً بالسرور سارياً، وفاعلاً.

واتخذ الخديوي إسماعيل ركناً من أركان القاعة، يلوذ فيه بحوارات مع رواد العرس، فيتدافع إليه الحضور كما يتدافع الفراش على مباعث الضوء، وقال في أداء ممثل ماهر :
- وكان طه باشا الشمسي، ناظر الخاصة الخديوية، قد كلف عدة حوانيت بتقديم مناقصات لتوريد جهاز الأميرات، فوقع الاختيار على محل باسكال الفرنساوي..
وهنالك أخذ السامعون في محيطه يثنون على الحانوت مائجين:
- ونعم الاختيار!
وتابع الخديوي:
- لما عرض عليَّ الأمر، قلت: ألم يتقدم محل مصري وطني مطلقاً؟
وعندئذٍ انطلقت صيحات، من لدن الحضور أنفسهم:
- عاش الخديوي، نصير الوطنية!
وتابع في فضول كأنما يدري أن الذروة لم تأتٍ بعد:
- وسألته: يا طه إذا كانت الحوانيت المصرية لا تستفيد ولا تنتقع من أفراح أولادي، فمن أفراح من تريد أن تستفيد وتنتفع؟ وعلى هذا وقع الاختيار على حانوت "مدكور" المصري!

## 22

مذ تلك الليلة انتظمت ألمظ في تخت ساكنة انتظاماً ملفتاً، وإذ هي تناديها بالأستاذة، وتخلع عليها من ألقاب الاحترام والتبجيل ما يعز نظيره، فإن ساكنة ظلت تتحسب من أن تشب الأخرى عن الطوق، فلما سمعت إعجاب الأميرة أمينة هانم بها، حين استقبلتها الثانية يوم خروجها من سراي الحلمية، منشدة ما وقع الاتفاق المسبق عليه:

أسرت الفؤاد المستهام عزيزة        ملكت قلوب العاشقين بأسرها

ثم ما بينها وبين الحمولي من علاقة تتقلب بين الخصومة والود، استعرت في نفسها نيران الريبة، وودت لو أمكنها أن تحيد هذا العنصر الجديد الوافد إلى دنيا الطرب، بغير خسارة تلحق بها، أو ضرر يزري بصورتها المتمتعة بحسن الأحدوثة على كرور السنين الطوال، ومتى سمعت من يقول:

"إن لألمظ صوتاً يسحر الألباب، ويلعب بالعقول، شدواً وطرباً، تصطفيه الطبيعة لقلة نادرة.".

تهكمت منه - بعد أن تنسب قولته إلى سوء التذوق- تهكماً، صريحاً فجاَ، حار الناس في تفسير أسبابه، فنسبوه إلى الغيرة تارة، وتارة إلى الازدراء، بغير قرار، هل هي الأحقاد؟ أم إساءة الظنون؟ هكذا ثارت السؤلات، مشمولة بالاستغراب، فقيدة الجواب. ثم بلغت الإشادة بألمظ، في أفراح البكوات والموسرين، ونوادي الفقراء والمعوزين، حداً صار معه من العسير أن تعمى عنه وتصم، فكانت تقول :"إنها أرزاق يكتبها

الرزاق لأنصاف المواهب، ولولا اختلاف الأذواق لبارت أكثر السلع!.. ثم أليس لنا جميعاً أسوة بانحطاط الشمس عن زحل ؟!"، على أنها ظلت تصل إليها جسور الود، تلقنها أصول الحرفة، في صبر ينفذ، وحلم يفرغ. وفي قصر ساكنة بالحلمية كانت ألمظ تغني:

يااللي تروم الوصال، وتحسبه أمر ساهل..

دا شيء صعب المنال، وبعيد عن كل جاهل

إن كنت ترغب وصالي، حصل شوية معارف..

لأن حرارة دلالي، صعبة وأنت..!

وقاطعتها ساكنة بينما هي تغني :

- هلا أمكنك الغناء على غير هذا المثال السيء؟! ثم هذا الذي تنشدينه ينسب إلى التهتك، لا إلى الفن!

وقالت العالمة حليمة :

- لقد غنت مثيل هذا عن قصد مغازلة عبده الحمولي! ولسنا في مقام الغزل الصريح الآن!

وكان صوت ألمظ الرخيم الرنان يجوب جنبات القاعة الشاسعة، فإذا امتزج بصوت ساكنة النحاسي المرسل صار من العسير أن يميز السامع إلى أي الكفتين يميل الميزان، أو ترجح الكفة، وكن العوالم يتسابقن في تحقير صوت الأولى طمعاً في رضاء ربة التخت، وصاحبة القصر، وتقول ألمظ ووجهها احمَّر خجلاً:

- ألا ما أقبح الغيرة!

وتقول ساكنة تقف على حافة الحقيقة، فما تلبث أن تهبط إلى مهاوي الاختلاق:
- أولم أكن أول من تنبأ لك بالنجاح؟ لم تسيئين الظن بنا؟ إن الغناء إذا لم يلتحف بالحشمة صار إلى المجون أقرب، هلم!
وتعيد ألمظ الغناء، كسيرة الخاطر، أسيفة الشعور، فتقول العالمة كوثر :
- انظرن كيف استحال لون وجهها أبيض بعد تورده! كل هذا لأنها لم تعد تغني للرجل الغائب. (تريد الحمولي).
وتقول ألمظ في غضب :
- ولو لم تكن ساكنة هانم من المغنيات في قصور الأمراء، ما أمكنها امتلاك قصر كهذا، قيمته، فوق العشرين ألفاً!
وأخذت ألمظ تحدق إلى إطارات الصور المزينة للجدران، والتي تضم صور ساكنة وأصدقاءها الفوتوغرافية، وكان فرش القصر ورياشه على مثال السرايات الفخمة، على النمط الغربي، وقالت :
- ألا ليت لي صورة هناك!
وقالت ساكنة في ذهول :
- أراك تحسدين القصر وجدرانه!
وقالت ألمظ في تحدٍ :
- وإسماعيل بنى في عصره من السراي والقصور فوق ما بنى أسلافه العلويين جميعاً، فلماذا لا يكون لي واحد؟ وإنه ليهب الأراضي بغير حساب للغربيين والسراة الوطنيين شريطة أن تقام عليها مباني تتناسب أبهتها مع أثمان تلك الأراضي الممنوحة!

وطفقت ساكنة تطوف بخيالاتها المشحونة، مستقبلاً تتراءى لها معالمه في نظرة ألمظ، المتطلعة، وفي حديثها، المتحدي. تحدث نفسها :

-"إن عاملة المباني، سوف تستغل سذاجته.. الحمولي .. ويوماً يصل بها إلى الأوساط الراقية.. وإلى القصر الخديوي.. وعندئذ تحوز قصراً كهذا.. يمنح إسماعيل مثيله لمن حلا في عينيه الزائغتين.. الزائغتين على الدوام!.. كما يمنح للبيضاوات، والسمراوات، والحبشيات، إقامة دائبة في قصوره المترفة !".

وهنا نبتت في عقلها نبتة الضجر، وركبتها الوساوس تلهو بها كيف تشاء، قالت لألمظ :

- فلتكف عن الاعتقاد بأنك مقبلة على حياة الهناء والرفاه!

وقالت ألمظ وهي تتأمل الإتقان في استخدام الخشب، كوحدة بنائية، بالقصر الفسيح :

- قد حق لي أن أحلم!

وقالت ساكنة :

- تتمثلين النهاية وأنت في أول السبيل؟

وقالت ألمظ ترمي بترتيب الأقدمية رمية بعد رمية :

- لم لا؟ أيكون الفقر مانعاً من التمني؟

وتدخلت العالمة حليمة فضربت بالساجات ضربتين طائشتين، وقالت توجه الحديث إلى المظ، فتجاري ساكنة حتى يخيل أنها هي :

- غداً ينكشف الساتر عن المستور، أما اليوم فلا محيص عن تعلم المقام، والعرب، والأصول!

وقالت ألمظ، في استكانة، أزادت ملامحها ذات الأصول اللبنانية الشامية بهاءً:
- أنى لي أن أتعلم في مناخ الزجر والنهر والإهانة؟
وقالت كوثر :
- لن يتحقق السلام إلا بإخراج الحيات من أوكارها. (تريد ألمظ)
وقالت ألمظ التي أحست نفسها حبيسة القاعة بين العوالم :
- ما أقبحه من مثال! ولو كان لكن آذان للسمع لاستشرفتن ما ينتظرني من المجد!
وقالت ساكنة في ازدراء :
- كل من أدعى ما ليس فيه..
والتقطت كوثر طرفاً، فأكملت منفعلة :
- كذبته شواهد الامتحان!
وقالت حليمة، مخافة أن يفهم صمتها تأييداً لألمظ :
- أما بلغك أن مادح نفسه كذاب لا يصدق ولا يعتمد عليه؟
وقالت ساكنة كأنها لتستحضر وجهها الآخر الموادع :
- ليس من المروءة أن نكون عصبة في مواجهة واحدة! وهذا عينه الذي كنت ولا أزال أكرهه من نسوة القصر.
وقالت ألمظ مسرورة بالتحول الأخير :
- جئت لغرض التعلم، لا لإثارة المشكلات.
وبزغت رغبة في الوفاق، وعلا الأذان، وكان ارتفاع القاعات عن الأرضيات من شأنه أن يسمح بمرور الهواء وتجديده في ليالي الصيف، وكذلك فعل. ثم كان هؤلاء الأطفال يلقون

بالحجارة على واجهة القصر، المزينة بالشرفات الرخامية، فجعلت حليمة تنهرهم. وقالت:
- والأطفال يرابطون حول القصر ولا يستحيون! العرابيد !
وكانت أحاديث الناس ما تنفك تثور، عن يوم، كان فيه الحمولي بعرس بناحية الجيزة، فاجتاز النيل على "المعدية"، لغرض أن يستمع لألمظ، وأنها غنت له في فكاهة: "عدي يا المحبوب وتعالى.. وإن ماجتشي أنا أجيلك أنا..!"، فراحت ساكنة تستفسر منها عن صحة الواقعة فلما أجابت بالإقرار، قالت لها :
- ومثل هذا يزري بصورة المغني في العيون، وينزل به إلى مهاوي القيل والقال.
وقالت ألمظ في تجرؤ :
- ولو كان ذلك كذلك، لكان حديث اقترابك إلى الوالي سعيد، قد منع الناس من مناداتك بالهانم والبك!
وقالت ساكنة مأخوذة :
- وكيف تسول لك نفسك المساواة بين والي مصر ومغنيها؟
وقالت ألمظ في إصرار على التحدي :
- أليس لكليهما في كتاب التاريخ ذكر باقٍ؟
وكانت الأقلام في ذلك الأوان تبحث في الأحداث السياسية الداخلية والخارجية، وتصرف كل أو جل عنايتها إليها، إذ كان الخديوي إسماعيل وعصره العامر بالتقلبات الحضارية، والتجليات المدنية، مسرحاً لألوان من هذه الأحداث، مما شغل الكتاب عن تأريخ حياة فناني هذا العصر. وودت ساكنة لو

ذكرت لها عن هذا الحال شيئاً، لولا أن هذا التغافل ينسحب عليها أيضاً، ويضر بها كما يضر بالحمولي، واكتفت بقولها :
- لسنا نعرف أيهما إلى زوايا النسيان يذهب أولاً، وأيهما أبقى في بطون الكتب والصحائف! ولكن الحمولي سيذهب - إذ ذاك - عازفاً ومغنياً في تخت، لا ملكاً كانت تحنى لأجله الهامات!
وقالت ألمظ وعيناها ترنوان إلى الزجاج المعشق الملون بالقاعة، كأنها لتبتغي الهرب :
- بل عدواً للمصريين بمشروعه المميت! (تريد ترعة السويس التي ابتدأت على عهد سعيد أعمال حفرها).
وقالت ساكنة وقد بلغ بها الغضب مبلغاً بعيداً :
- أراك تبرعين في الجدال فوق براعتك في الغناء!
وقالت كوثر :
- إن حبها لمعشوقها يزكي حرارة حديثها، ويغيب عنها حقائق جمة، و لقد غنى لها:

روحي وروحك حبايب

من قبل دي العالم والله

وأهل المودة قرايب!

ثم ها هو يقف على هاذيك المنوال، مرتدياً جلباب جوخ، وعباءة، وكوفيه "محلاوي"، وبيده عصا أبنوس، ويقول ممسكاً بالعود:

يا أهل العجب شوف حبك كواني..

فيغدو السامع أحير من الضب، لا يدري كيف علا صوته وانخفض في لفظة "العجب"، حتى لقد يدعي الأسواني العواد أن نطقه للكلمة أبهى من مدينة لندن!
وأغرب العوالم في الضحك تأييداً لها، فترددت أصداء ضحكاتهن في القاعة، وقالت ساكنة في تهكم :
- لا بأس بأن تتخذ الرجل جسراً إلى القصر الخديوي، وقد أعماها بريق المال، وأسكرتها الأمنيات!
وقالت ألمظ في استهجان :
- أما علمت أني أنشد التتلمذ على يد محمد نوار السمنودي المنشد والمغني المنقطع لقصر الخديوي، الذي وعدني بأن يتولى تعليمي، محجبة، بين الجواري، فما حاجتي إلى الحمولي أو غيره لأصل إلى القصر؟!
وتلألأت عيناها بنشوة انتصار عابر، حتى قالت ساكنة في انفعال كاذب، كأنها اتخذتها فرصة للطعن في الحمولي :
- أحسنت قولاً، إن الحمولي لم تعلمه مدرسة، ولم يهذبه كتاب، ولم يتلق دروساً في النوتة والكمان! ولهذا يعد بمقياس الفن الحقيقي مخرفاً واتته الظروف، ومحرفاً طاوعته الجماهير، فما حاجة عاقل إليه؟!
وقالت ألمظ وقد صارت من خصيمتها على مسافة ذراع :
- ليتني وليتك مثله!
وقالت كوثر :
- حين أرادت هياماً قصدت إلى الحمولي، وحين أرادت تدريباً ذهبت إلى ريستنا ساكنة.
وقالت حليمة بصوت عالٍ:

- لم تتعالين على الاستماع إلى نصائح مطربة العصر؟ ولقد عاصرت ريستنا محمد علي، وبزغ نجمها عهد عباس، وهام بها سعيد، وكرمها إسماعيل! ألا فليعب كل طامح إلى المجد من قدحها العامر ما شاء!

وقالت ألمظ، كأن وجهها ينطق صامتاً: "قد بلغ السيل الزبى":

- أي عصر هذا؟ وساكنة لم تتفوق في زمنها - بطوله وعرضه

- إلا على المطربة "سلم" العوراء، لا يزيد حظها من فضل الاجتهاد عن هذا، وخلا هذه، فقد عدم جيلها من المحسنات في الغناء من أبناء جنسها!

وقالت كوثر:

- خير لك أن تشتغلي في حمل المونة تقدميها للبنائين، بدلاً من محاولة مضارعة كبار الفن في دارهم، والنخل، مهما فرع، لا يفارق تربة الطين!

وقالت حليمة :

- لماذا لا نغني بدلاً من أن نتشارك الأحقاد؟

وقالت ساكنة لألمظ لا تلبث أن تعيد الحوار إلى حرارته :

- فلتنشدي البياتي من درجة الري إن استطعت..

23

"إلى عزيز أغا..
بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله المجتبى من أرومة العرب العربية الباسقة السابقة الحال من شوامخ آل مناف في الذروة السامية السامقة.. سيدنا محمد الذي عجزت عن معارضته فوارس الألسن من العرب العرباء.. وحارت دون مباراته فطاحل البلغاء.. أما بعد.. إنه ومع علمي أنه ما خلق الرجال إلا لمصابرة الأهوال، ومع يقيني بعدالة تسير الأشياء، وترفع المظالم، قدرها العدل، جل وعلا، قبل أن تقوم في الأرض حركة، فإنني قد حاولت جهدي، أن أقنع ذوي الشأن من أرباب القصور، وأصحاب الجنان، برفع المظلمة التي نزلت ولا تزال تنزل بك، والتي ألحقت بك لغير ماسبب وذر التقصير في حماية عباس حلمي باشا، يوم اغتياله المشؤوم، والذي، وللعجب، برحيله أعيد إلى الأسرة العلوية شملها المفقود، ووحدتها المنفرطة..

ثم أنني حاولت جهدي، أن أقنع الدوائر التي تحيط بأولاء المتحكمين في مصاير البلاد والعباد، حتى انتهيت إلى أصاغر موظفي الدولة. فقصدت إلى أربعة يحيطون بالخديوي: نوبار باشا، وشريف باشا، وعلي مبارك باشا، ومصطفى رياض باشا، ثم إلى خليل أغا كبير الأغاوات، ثم إلى إسماعيل نفسه. وقد أغراني حرص الأخير على إعادة الضابط المصري

المعروف بعرابي، بعد خلافه المشتهر مع أحد اللواءات الشراكسة، إلى الجيش، بعد توسط كريمة مرضعة الأمير إلهامي باشا، التي تزوج بها عرابي- أقول أغراني على سؤال إسماعيل، رفع المظلمة التي تخصك.

ولكيلا أطيل في غير داعٍ، وإني أعرف أن بك شوقاً - بل واحتياجاً - إلى معرفة النهايات، فإنه لا فائدة ترتجى إلا من الخديوي، ذلك أن الخطب الذي أسعى إلى التوسط لك فيه، جد، لا هزل، ثم أن أولاء المحيطين، سواء أكانوا من أصاغر الموظفين أو أكابر رجال الدولة، يحيلون كل مهم يجيئهم إلى الخديوي.

ولكن ومع انتظار أن تجري تحت الجسور مياه جديدة، فلقد أرى أن أبلغك بما جد من أمري، خصوصاً، بعد انقطاع الرسائل بيننا أشهراً، من بعد انقطاع الأسباب بيننا سنيناً! فلعله قد بلغتك الروايات متناثرة عن تلك المغنية سكينة المعروفة بألمظ، فلا أقول لك في أمرها إلا بأنها كالهر الأليف، الذي تعنى به، فما يلبث والغدر في دمه يجري أن يغدر بك. وإنها ما كادت تتقن شيئاً من علوم المقام والنغم، وتمسك بطرف الإنشاد الحسن، مسكاً يسيراً، حتى أعلنت العصيان على ربة التخت التي منحتها فرصة الظهور، وهيأت لها أسباباً ما كانت لتبلغها ولو على أجنحة الخيال. فلم تعد بعد تمردها إلا جاحدة فضلاً قديماً، منكرة نعمة أصيلة، فلا تذكرني والعوالم في نادٍ إلا بسوء، في وقت تتزلف إلى هذا الحمولي الذي نافسها وكاد

يقضي على أثرها، ردحاً من الزمن طويلاً، فسبحان مقلب القلوب! وقولي في هذا الذي يدور، أكرره: فإن علاني من دوني فلا عجب، لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل!*، ثم كان هذا العمر الذي تزحف آثاره على معالم الوجه والجسد، فلا يكتفي إلا وأن يلم بالصوت، وينزل به إلى مهاوي ضعف التعبير، والتنغيم، وذلك الذي أرغمني على مفارقة الأفراح ومجالس اللهو، والاكتفاء حتى حين بمجالس الأدب والتدين، وقراءة القرآن. وإلى هذا يعزى سبب عزلتي عن الأوساط الغنائية، وقهري على نبذ الإنشاد، أما أن ينسب إلى عاملة المباني، ما ليس لها من فضل التفوق على أستاذتها في الفن فهو الجهل والإجحاف.

في قصري قاعات عدة وسيعة، مؤخراً، خصصت إحداها لتعليم القرآن، يوماً ما كانت -القاعات- أمكنة لحفلات يحضرها الخديوي إسماعيل، ومجتمعاً خصباً لفرقة العوالم، يذهب بعض الجامدين إلى حرمانية ما أقدمت عليه، بل يحرض فريق منهم العوام على هجرها. يقولون: إن دياراً كانت ساحات للملاهي لا يصح أن ترفع فيها كلمات التقديس. الأوبرا تقتصر على الغناء الإفرنجي، يلوذ المغنيون الشعبيون إلى الموالد على درب الاشتهار والتعريف بأنفسهم، مثلي، وفي الأوبرا يغني الأجانب للأجانب، ويستمع الصفوة للصفوة، ويقف عوام المصريون موقف المتفرج، بين المتذمتين وبين النخبة".

وجلست إلى كرسي الخيزران، في زاوية القاعة، بالقصر، ترقب مشهد المغيب، البادي في انسحاب الضياء رويداً، رويداً، يحرك في حنايا نفسها لواعج الانكسار، وآلام الذكرى، أإلى الزوال المحتم؟ أإلى الظلام ننتهي؟ ألا بئست مثل هذه النهاية! وإنها امرأة ما ورثت إلا فناً، لا ولداً، لا مالاً، فما يبقى لها؟ وواصلت التدوين :"ثم ضاقت الحلقات على مصر، بعد إتمام مشروع القناة الواصل بين الهند والغرب، ولاحت نذر الحرب بعد بزوغ الأطماع، ولا أخشى شيئاً في خاتمة حياتي إلا من هذا.. والتجأت مصر إلى الاستدانة لتتمم سيلاً من المشروعات الإصلاحية، التي أنفق عليها في بذخ عجيب.. ولا أشفق على شيء إشفاقي على الإسكندرية من أن تكون مسرحاً للحرب، ثم على المصريين من أن يعانوا مزيداً من الويلات..".

"وفي حفل افتتاح القناة رأيت الرقيب، على ظهر الحصان، وهو يحدث النظام بين جموع المصريين بعصاه.. فإذا تيارهم يتراجع فيضطرب.. والقائمون على الحكم لا يعرفون إلا العنف سبيلاً ومنهاجاً.. وفي القصر الخديوي كانت هوشيار هانم تحذرني من محاولة التقرب إلى إسماعيل.. بينما الشيب يغزو شعري المشتعل بالبياض ومحاسني قد انطفأت أمام سلطان الزمان.. وإسماعيل لا يتورع عن دحض العبودية ثم تعقب العبيد.. وسراياه عامرة بصنوف الجواري.. والإنجليز يعاونوننا على حفر القناة.. ثم يهددوننا باحتلال جديد إذا لم نوف لهم الحقوق.. وملوك العالم ملأوا السراي طرباً ورقصاً.. ثم لم يلبثوا رافعين أيديهم عن الخطر الداهم بنا.. وعوام المصريين

على سيرة الأوروبيين ماضين تارة.. وتارة إلى النكوص قاصدين.. وماذا بعد هذا إلا الخبل الذي أصاب حيواتنا وديارنا؟!".

وكانت أخفت عن الرجل، في رسالتها إليه، حقيقة ما يسري في أوصالها من دبيب الضعف، وما يجتمع على جبينها من غصون العجز، فلم تذكر له عن كل ذلك إلا وجيز العبارة، ولمام القول، وفتحت المصحف، فأوغلت فيه، حتى غفت، فتجلت من حولها خيالات وأوهام، وتبدت حياتها شريطاً واحداً موصولاً، وغضبت من فصله الأخير، وأسعدها رؤية الماضي برونقه، وحلته الزاهية. وفي مجالس الأدب، التي كانت، في أيام الخميس والاثنين، تقيمها، في قصرها بالحلمية، قالت للحضور من المشايخ والعوام:

- إن سورة في القرآن هي التي جعلت لي تاريخاً في الغناء! هلا عرفتموها؟!

وهنالك يتسابق الحضور إلى القول:

- سورة يس!

فتوزع على المصيبين الهدايا، حتى ظنها الناس لبذخها وعطاياها لم تفقد رنين صوت، ولم تترك مجلس غناء. وتقول في فخار :

- والإمام ابن القيم الجوزيه حين قال: فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا، لم يقصد التعميم.

وعندئذ يقول قائل من المشايخ في مهادنة، يود لولا أنه في قصرها أن يعتمد أسلوب الصدام :

- وماذا عن أحاديث شريفة نقلت إلينا، كان فيها الغناء مزمور الشيطان؟
ويسقط في يدها، فتقول بعد تفكير:
- إن حلاله حلال، وحرامه حرام!
ويقول من آخر المجلس واحد :
- ألا ترى المرأة وقد هجرته منذ زمن فلم تحملها وذر الماضي؟
ويعم الضحك، كالموجات، في جنبات البهو، وتذكر شيئاً عن الوفاء الغائب في عصر الغبن، وتستشهد على ذلك بألمظ، التي استقلت بتختها عنها، وجحدت الماضي، وتنتهي إلى قولها المسجوع :
- وألمظ من بعد الجوار تجور!
وتحين فرصة اللهو، وينقلب مجلس الأدب ساحة لهو، فيها مشاهد التنكر، وألعاب الظل والدمى، والنرد والشطرنج، وترى الأطفال ملائكة، وما هم بملائكة، فإذا اقتربوا من نافورة الماء داروا حولها، وأنصتوا لخريرها في عجب كأنه قيثارة لحن أبدي. وإنها لتسهم الطرف في حضورهم الفطن، وتصيخ السمع لضحكاتهم الرقراقة، وتتأمل رث ثيابهم في إشفاق امرأة لم تنجب، وتشخص إلى نعالهم المتهتكة في عطف امرأة موسعة. وتقترب منهم فتبادلهم لهواً بلهو، ولعلها تساءلت: هل جارت على نفسها حين لم تنجب، وتعلقت بأحبال أوهام حذرتها منها نعيمة؟
وتنادي بينما هي بين الجمهور بالبهو سائرة :

- كانت أمي تصر على تعليمي الخياطة والتطريز، وأما أنا فلم أحضر دروسهما قط، وواجهت رغبتها بمختلف الحيل والأحابيل، وكان نفوري إزاءهما يتزايد كلما ازدادت المرأة عليَّ إلحاحاً! وسمح لي أبي بتعلم المقام لما وجد مني شغفاً بالموسيقى، وميلاً إلى النغم، لأكون قارئة للقرآن، فكان يدربني من بعد العشاء ساعتين، ثم عصفت بأمنيات الرجل في يوم صعدت إلى منصات الأعراس، وكان الغناء في هذا العصر - كالأدب - أمراً من البنات غير مستحسن، وكره أبي مني تمردي عليه، وهجرني أولاً، وآذاني دهراً، ثم أقر بما لا مهرب منه!

ويقول من القاعدين واحد، رابتاً على كتف صغيره :

- أراك تحرضين أبناءنا على التمرد! ألا إن حديثك ليس فيه ما يدعو إلى الفخر.

وتقول متجاهلة الأخير :

- واليوم على فراش الموت أبي يحتضر، وقد عمر فوق ما يطمع بشر، فادعوا له تستجب دعواتكم..

ويقول واحد:

- لقد غدا عبد السلام على مشارف المئة عام، وكأن ملك الموت قد نسيه! لم يتشبث المشايخ بحياتهم وقد عاشوها طمعاً في دار أخرى؟!

ويقول آخر في لهو :

- ألا إنه إن جاز المئة أعطانا - نحن العجائز - الأمل في مستقبل مديد. وقد استهان بأسباب الموت إلى الحد الذي جعل وباء كالكوليرا لا يقترب من داره.

وكانت تجد في قص حكايتها على الأسماع لذة فائقة، وفي حركتها الرشيقة بين الجنبات متعة فريدة. فها هي ذي تحكي لأولئك المحتشدين بالقاعات عن أخبار عباس، وسعيد، وإسماعيل، وتقول:

- وهنا كان يحب الخديوي إسماعيل أن يقعد! فإذا استساغ ما سمع أمال رأسه الكبير طرباً، وأغمض عينيه.

وتذهب بالخيال إلى الخديوي المحبوس في قصر إميرجان بأسطنبول، من بعد إقالته، فترتجي له السلامة، ثم ما تلبث أن تنقلب آسفة :

- وهنالك ماتت نعيمة!

وهنا يبتلع الشحوب وجهها فتترحم على نديمتها. وتقبل الناس منها ما سمعوه لخيريتها التي أوقرت في نفوسهم شعوراً بالعطف نحوها. وإذا بدلت حديثها، بسبب من نسيان أو سهو، لم تجد منهم إلا تفاعلاً وتصديقاً. وإذا ألح عليها الحضور بالغناء لم تجد إلا قصائد ابن الفارض تناسب مقامها الجديد. وتقول :

- وإني أحب حديث التصوف لرقته وعذوبته، ولا أؤمن به منهاجاً، فكيف أن نعتزل الحياة وقد منحنا فرصة فيها؟

ويقول قائل :

- والزهد فيها خير ما يبتغى..

وتقول:

- وحتى هذا ديدن الضعاف المتخاذلين، فلا معنى بغير صراع. والتصوف واحة يلوذ بها من أضناه استعار الصراع، لا غاية في ذاته!

ويقول الآخر:
- ماذا لو أن الحقائق قاسية، ولها وجه جامد؟ أليست حينئذٍ أوراق التوت تنفعنا؟
وتقول:
- وهل جار علينا الزمن إلى الحد الذي صرنا نبتغي فيه الأوهام سبيلاً؟
وكان طول الغناء يؤذيها، لمرض أصاب حبال صوتها، فتنتظر جواب أهل الغناء ممن أخلصوا لها، بعد عزلتها، من مثيلات حليمة وكوثر، والعوالم. ويقول قائل في دهش :
- وصوت ساكنة هانم بعد شيخوخته وعلته لا يزال خير من صوت العوالم!
وتضحك حليمة وتقول:
- بل هو خير من ألمظ وعبده الحمولي مجتمعين!
ويستمر النقاش والعيون هواجع، تسلي عنها الأحاديث، وتخفف عنها المسامرة. وتقول :
- ومن بين الملوك والأمراء الذين عرفتهم، فإن امتناني لمعرفة إسماعيل كبير، وسببه منحتا القصر والبكوية، وحبي للوالي سعيد مبعثه أنه أدخلني إلى كتاب التاريخ، ورفعني إلى مستوى نسائه ولو لم يتزوج بي.
وتقول في إسماعيل* :
- "والأمير هو الذي يضحي أميراً يوم عزله، إن زال سلطان الولاية، لم يزل سلطان فضله !".
تقولها بينما تتنعم بأفضال الحياة الرغيدة في القصر!

---

* البيت مقتبس من قصيدة لامية العجم للطغرائي الأصفهاني..

* عبارة مجهولة المصدر، من المأثور.

## 24

"من ساكنة بك.. إلى الخديوي توفيق..
الحمد لله باري الأمم، والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم..
بعد أن أهدي إلى مقامكم السامي، وقدركم النامي، ما يليق من التعظيم والاحترام والتكريم، فالذي نبديه لحضراتكم أنه في هذه الأيام تبالغ إلينا أنكم تفكرون في إصدار العفو عن بعض المسؤولين، عن مقتل عباس حلمي، وعلى رأسهم كبير الأغاوات، آنذاك، عزيز أغا، والذي عصفت به التهم الموكلة إليه، في أتون المعمعة، التي أعقبت حادث الاغتيال الحزين.. فنود، ونحن على علم بأن الرعايا وديعتكم بعد رب البرية، وقولكم: إن الجميع في المعاملة لدينا سواء، وأن كل عمل تقدمون عليه ليس إلا لمرضاة مشيئته الربانية - نود أن يأتي قراركم ملبياً لمعنى العطف، وهو المأمول من سيادتكم وأنتم على درب أبيكم إسماعيل سائرون..".
وقالت حليمة:
- لماذا تبدين لرجل سلم البلاد للإنجليز هذا الاحترام؟
وقالت ساكنة لحليمة:
- والخديوي توفيق، بعد هوجة عرابي، في أمس الحاجة إلى من يعامله معاملة الملوك، ويحفظ له ماء وجهه، ولأجل ذلك

أسرفت في إبداء التوقير له، ثم هل كنت سبباً فيما أقدم عليه من الخيانة؟

وظلت لحظات ترقب أثر كلمة "الخيانة" في محدثتها، وقالت :

أما سمعت عما نظمته عائشة التيمورية من أبيات في وصفه حين عودته بعد حادث الثورة إلى مصر :

لاحت بآفاق السعود بروق    وبها الأقدار السرور شروق

وبدا إلى الأحداق بعد تغيب    نجم له في الخافقين بريق

قرت عيون أولي النهى* بظهوره    في الأفق لما أسعف التوفيق

الله أكبر يوم آب عزيزنا    عيد كبير زانه التشريق.

وضحكت حليمة وقالت بينما تجتهد أن تجد بين الضحكات موضعاً تتحدث فيه:

- ولو قصدت المرأة.. عرابي نفسه لعجزت قريحتها.. عن أن تأتي بما هو خير من هذا! ولكن هل يجد مطلبك لديه آذاناً صاغية أو أصداء استجابة؟

وقالت ساكنة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة تجاوب مع حليمة:

- مبلغ خوفي أنه ابن شفق نور هانم، مستولدة إسماعيل، وهذه لم يكن بيننا وبينها إلا نوزاع الخصومة.

وتابعت وهي تضع الحبوب للحمائم، الرابضة عند حافة النافورة الرخامية:

- إن زواج إسماعيل بشفق نور هانم جاء بالأساس تلبية لأوامر عليا، من السلطان العثماني، وعلى ذلك، لم يكن لإسماعيل يد فيه، ثم لم يشأ الرجل أن يضمها إلى أزواجه الأربع، وإنه - كما

يتردد - كان يعاملها معاملة أم لابنه الذي من المحتمل أن يتولى الخديوية، بغير أن تشوب حياتهما عاطفة قط، ومثل هذا الميل الناقم، والشعور الفاتر، قد يصح أن ينتقل إلى الابن، توفيق، تجاه الأم، لولا أن توفيق، هو الآخر، يكره من إسماعيل منعه من السفر إلى أوروبا، للدراسة، وقد تجلى هذا في تخليه عنه في منفاه، فلسنا نعرف بعدئذٍ أي شعور يبديه الابن تجاه أمه، ولا أي خط سير يمضي فيه!

وقالت حليمة وفي نفسها غصة :

- ولكننا لم نحي في قصور توفيق ليلة واحدة، تجعل لنا في قراره تأثير، وفي تفكيره اعتبار، بعد عهد استأثر فيه، ألمظ والحمولي، بالأمسيات الخديوية، من بعد أفول نجمنا.

وقالت ساكنة بينما ينسل شعاع الضوء النهاري إلى جبينها :

- وإسماعيل الذي ملأنا قصوره بأنغام الأفراح، ولحون الأهازيج، وأحيينا ليلة القناة لأجل خاطره، قصد إلى الإرجاء في قضية عزيز، واعتمد سبيل التسويف لخوفه من المساءلة.. وأما من ابتسم في وجه المحتل، وتلاعب بالسلطان العثماني، وعاقب ناظر الجهادية بالإعدام قبل النفي هو من يرتجى منه العفو.. لكونه بغير مبدإ أو عهد!

وقالت كوثر وكان أن تسبب اقترابها من النافورة في هلع الحمام وافتراقه:

- لقد اصطحب الخديوي إسماعيل أزواجه وحاشيته، يوم عزله الموافق 30 يونيو من عام 1879م أي قبل أكثر من ثلاثة أعوام، من الإسكندرية إلى نابولي، ومنها إلى قصره المطل على البوسفور، في إسطانبول، بعد أن قدم إلى السلطان عبد

المجيد الثاني التماساً بالإقامة لديه. فلا تأثير يذكر لشفق نور هانم على الخديوي الجديد، وقد حيل بينه وبينها حواجز المكان!
وبدا أن حديث كوثر قد قطع جهيزة كل خطيب، وساد الصمت في أعقابه حتى قالت نعيمة :
- ويحق لعزيز أن يحمد الأقدار التي وهبت له من يذكره ويعنى به بعد غيبة السنين الطوال!
وقالت ساكنة وقد همت باستكمال رسالتها إلى توفيق :
- وأنتن يا بنات لم تعرفن الحب إلا سبيلاً للثراء السريع!
"ومن حيث أن القانون الساري، وأنتم أول العارفين به، يراد به وجوباً، الاجتناب والاحتراز مما ينتج منه الضرر، ثم ترتيب أحوال البلاد، وتمهيدها واعتدال أمورها، وتوطيدها، وتنظيم أحوال الصنايع، ومصالح الزراعة والحراثة، التي باستعمالها يتأتى الرخاء، لا إنزال الضرر بالأبرياء، المخلصين إلى القصر والبيت العلويين، وعليه، فإننا نلتمس منكم مزيداً من العفو والإكرام على المذكور.. وعزيز خانه الانتباه وإظهار الغيرة العمومية، في موقف اضطراب شامل، وأوان عصف بالنظام كامل، وإدانته فيما لم يفعل، وليس فيما فعل..".
وقالت حليمة:
- وإلحاح ساكنة على الخديوي توفيق، مثل إلحاح إسماعيل على السلطان عبد المجيد، سوف يفضي إلى نتيجة كالسحر!
"واجتماع جنس بني آدام وائتلافهم، وحركاتهم، وسكونهم، ومعاملتهم، ومعاشراتهم، كل هذا ندين فيه إلى ميزان العدالة المتجسد في قاضٍ معصوب العينين.. وتلك هي الإرادة

الصالحة الصادرة بالأساس من حضرة سعادة ولي النعم في الأمور الدقيقة الحاصلة، وكذا الشؤون الجليلة الحادثة..".
ومكثت المطربتان، حليمة وكوثر، حيناً، تصغيان إلى كتابة ريستهما، في انبهار، من لم يتعلم حرفة التدوين، ومن لم يقصد كتاباً، حتى قالت حليمة لكوثر، فتجتهد ألا تسمع ثالثتهما حديثاً قد يزعجها :
- وغداً تقام زفة ألمظ إلى عبده الحمولي في ميدان عابدين!
وقالت كوثر :
- الخبيثون للخبيثات، ولا عجب! من أقصى العداوة إلى أقصى المحبة!
وقالت ساكنة، وكانت حواسها لا تزال حادة رغم كبرها :
- فلننشد السعادة حتى لمن خان العهد!
وتبدت العبارة الأخيرة كلؤلؤة على صحن النافورة الرخامية، زادتها سلاماً وتسامحاً، بل وبهاء ورونقاً. وقطع على حليمة وكوثر سبيل الغيبة، فأشرقت نفسيهما بضياء جديد، سوى ضياء النهار. وصمت ثلاثتهن فكأن أنفسهن الوادعة، مغتبطة مسرورة. ومكثت ساكنة حيناً تفكر في أصداء رسالتها إلى الخديوي:
"وإلى متى نصون الوعد والعهد؟.. هل يفيد حمل قنديل وسط الدياجير المعتمة؟.. أو التعلق بقشة في بحر لجي.. وعن يميني وشمالي امرأتان لا يفهمان من حالي شيئاً.. وحتام نعتمد التزلف سبيلاً في التعامل مع أولياء النعم؟.. ما كان لعباس أن يقتل، وما كان لعزيز أن يهرب، وما كان للحقوق أن تهدر، أو للقلوب أن تتفرق.. ".

ولاحظت حليمة انشغال ساكنة عنهما، فقالت :
- سيعود الغائب مثلما يعود الطير أدراجه ومضاربه!
وقالت ساكنة وفي عينيها المدامع :
- أخشى أن أكون كالتي انتظرت الثمرة وهي في البحر تحرث!
وغسلتها الدموع كزهرة ارتوت بالأنداء، وانقسم وجهها بين مقاومة ومصالحة، وبين تمرد واستسلام. دعتها حليمة إلى الغناء لتسري عنها وطأة الذكرى، فأبت. وعندئذٍ أسرعت كوثر إلى العود، فقبضت عليه بين هاتين اليدين البضتين السمينتين. كان العود معفراً بالتراب، لكونه متروكاً منذ زمن. فثارت في الأجواء أغبرة كثيفة، أصابتها أشعة الشمس فأضاءت حناياها، حتى بدت في فضاء القصر، كالسديم. وقالت ساكنة في خجل:
- كنت خير مغنية لزماني!
وقالت حليمة:
- بل وكل زمن!
وغنت ساكنة نزولاً عند إلحاحهما، من أبيات ابن الفارض :
جمالكم نصب عيني.. إليه وجهت كلي..
وسركم في ضميري.. والقلب طور التجلي..

كانت تغني عند طبقة واطئة، بغير زخرفة. تغلغلت الموسيقات في أعماق النسوة، في مشهد مترع بالجلال، والوهن، في آن، ثارت فيهن نوازع متضاربة، ودوافع متباينة: التجلي والخفوت، العزم والخور، التسامح والغلواء. تناست ساكنة عزيزاً وأشرق في نفسها ضياء الماضي بزخمه الباهر، وإمكاناته البارعة. تراخت عاصفة الغناء حيناً بعد شدة، ثم

ماذا؟ أليست النهاية حق؟ أمسكت ساكنة بهذا العود الضخم، القائم كالأمير بين الآلات، ضربت عليه فآلمها أن أصبعها صار من العجز أن أعجزها عن إتمام اللحن. وقالت حليمة تداري ما تجلى من أثر الهرم :

- ومنذ متى وأنت تجيدين العزف على العود يا ريسة؟

وقالت كوثر:

- وهذا العود الضخم بين سواه من الآلات، كسرير داود بين أسرة الملوك، له فضل وتفوق!

وقالت حليمة :

- ألسنا المقصودات بالقول جمالكم نصب عيني؟ أم من؟ ولا تقولي بأنه عزيز لأنه توارى عن الأحداق بعد تغييه الأخير، المناهز أو المجاوز لعقود ثلاث، فليس يتأتى لنا أن نعرف كيف جار الزمن على مظهره، أو تدهور تكوينه النحيل، الهزيل بالأساس!

كانت ساكنة انفصلت عن كيفية الحال والزمان، هناك، وهناك يتخايل لها انضمام أصوات المعازف النحاسية إلى نغمات الأوتار، وعلو الصيحات إلى منتهاها. ضربت على الأوتار ضربات سريعة مبتدئة من القرار، كأنها تنهد الريح المنذرة بالهجوم، فهل عساها شعرت ببرودة كبرد الزمهرير؟ وكلما جازت شوطاً زادت قوة واتساعاً حتى تخايل لكوثر وحليمة أنها وطأت السماء، بأنغامها. من أين لها بهذه المقدرة الجديدة؟ هل أشعلت رواسب الأكدار جذوة إبداعها الأصيل؟ وقالت حليمة في انفعال :

- ومن ذا يسعه أن ينكر موهبتك يا ريسة؟!

تراجعت أصوات تلك الصيحة، هابطة تدريجياً، إلى أن انقطع خوار المعازف، واستقلت رنات الأوتار، صفقت حليمة وكوثر، الشاهدتان على الإبداع الرباني، بكت حليمة حتى أغروقت عيناها الضيقتان، قالت كوثر، ربة العود في فرقتها :

- ألا إن عزفك هذا هو خير من الموسيقى الأفرنجية التي أمطروا بها الآذان، هذا العصر، صباح مساء! وليس فيها - الموسيقى الأفرنجية - إلا دوي الطبل، وقعقعة النحاس، وطنطنة المثلثات الحديدية، وخوار المعازف المعدنية! ألا إن ساكنة هانم تنهل من معين سماوي لم ينهل من مثله إلاها من أهل الحرفة والإبداع! لقد ضل الحمولي وألمظ وضل من وارثهما العبيد.

---

* أولي النهى: أصحاب العقول.

## 25

لم يكن من دأبها أن تبحث في وجوه مستمعيها عن لمحة راضية أو بسمة عابرة، فإذا شدت توجهت نفسها إلى الفن وحده، وإذا استوت لها القطعة الموسيقية البارعة كانت أول مدركة لسحرها، وأول مستمتعة ببهجتها. على أنها أحبت ما أبدتاه لها كوثر وحليمة، ذلك النهار، من تمادي في الإعجاب، وهي منقطعة الأسباب، بعد شيخوختها، بماضيها الحافل، وتاريخها الأثيل. وقالت حليمة :

- إن العزف على العود لمهارة جديدة تضاف إلى سجل الريسة الفريد في التعامل مع الآلات، بعد الغناء. ما بال المطربين الجدد لا يستنون بسنتها؟ فإذا هم تاركو التناسب الذي هو أساس الجمال.

وقالت ساكنة :

- وفي الغرب اخترعوا جنياً سموه بالفونوغراف، من شأنه تسجيل الأنغام على أسطوانة معدنية صغيرة، ملفوفة داخل رقيقة من الصفيح، ثم إعادة ترديدها، فإذا الصفيح ينطق ويتكلم!

وظلت لحظات وعلائم الانبهار تضفي على وجهها انفعالاً، وقالت:

- الموت! ألا تخشون منه؟

وقالت كوثر:

- إن ذكر الفتى عمره الثاني، فليس ينبغي لمن نال السمعة الطيبة أن يخشى الرحيل.
وقالت ساكنة في أسف:
- والتاريخ يقف عند نهايات الوقائع، ولا يعنى بالمجرى الكامل للحوادث! وواقع الحال أن المغاني لا يعرف تاريخهم ولا يدون.
واشتعلت عيناها بغضبة، سرعان ما انكسرت، كالشمس الحمراء تسلم قيادها إلى العتمة. ما جدوى الانفعال إذا كنا نحرق به ذواتنا؟ وقالت صارفة غضبها إلى الشأن الجاري العام :
- لماذا لا يكون للمصريين نشيد أسوة بالأمم المتمدنة؟
وقالت حليمة :
- لأنها - الأمم المتمدنة - تفرض على القطر المصري حال المتبوع.
وقالت كوثر:
- مثلما نحن في فرقتك تابعون لا يجوز لنا إلا الغناء في أوقات الجواب! فما أشبه مصر بنا!
وضحكت ساكنة فندت عن رأسها حركة مفرطة في الاستجابة، وكانت أكثر شيء طرباً للمضحكات، وتساءلت: أين ولت أيام الفكاهة والأسمار؟ وطرق الباب بعنف، فاهتاجت عواطفها كالجمرة، هل من جديد في شأن الغائب؟ وقالت وهي في مرمى أبصار العوالم:

- سادتي! إن لي قلباً رقيقاً يحدثني، تلك الساعة، حديثاً ترقص له نفسي طرباً وجذلاً. لقد جد جديد، أخبركم وأنا التي لا يخفى عنها من أمر عزيز خافية.
وقالت حليمة وهي تلوك اللبان في استهتار :
- لا عليك! إن هي كلمات تقوليها دوماً وعلى الله قصد السبيل!
وقالت كوثر:
- منذ كان يتراءى للريسة في المنامات حاملاً الورود القانية، وهي لم تترك بعد الأمل في عودته.
وتحركت الأخرى وكان طريقها إلى الباب أعذب رحلاتها، وأشقاها، وفتحت مصرعيه الهائلين، فكان رسول الخديوي حاملاً رسالته.
كان فرمان الخديوي توفيق واضحاً تمام الوضوح - خلافاً لطبيعة صاحبه المراوغة - يتوسط أعلاه عبارة :" نحن خديو مصر"، وأما محتواه فاشتمل على الآتي:
"بناءً على ما رأينا من استعمال لنا من حق العفو للمدعو عزيز أغا، كبير الأغاوات، إبان عهد عباس، أمرنا بما هو آت..
أولاً: الحكم الصادر على عزيز آغا المقتضي جزاءه بالإعدام وقع تبديله بالعفو الجزئي شريطة عدم الممارسة السياسية في الأقطار المصرية، أو ملحقاتها..
ثانياً: وأما بخصوص غيره من المستخدمين بالقصر، إبان وقوع الجريمة النكراء، والحادثة الشنعاء، فتعاد الأحكام الموقعة عليهم جميعاً، ابتغاء وجه العدل والعدالة،..
صدر بسراى عابدين فى 3 محرم سنة 1301ه الموافق 3 نوفمبر 1883م (توقيع) محمد توفيق ناظر الحربية والبحرية:

(عمر لطفى باشا) ناظر الداخلية: (مصطفى رياض باشا) بأمر الحضرة الخديوية: رئيس مجلس النظار (محمد شريف باشا)".
وقال لها رسول الخديوي توفيق معقباً :
- إن مولاي يرى بأن السهو في العفو، لهو خير من الخطأ في العقوبة، ولابد أنه وضع رسائلك الملحاحة إليه موضع اعتباره!
واقتربت منها المطربتان حليمة وكوثر، ترش أولهما ماء الورد، وتطلق الأخرى الزغاريد، فقال الرجل في انفعال:
- لئن كانت ثمة عقوبة، فإنها قد انتهت!
ومع وضوح العبارة، وجلاء البيان، ظل قلبها يرتجف، وثارت القلاقل، فانتزعت منها نشوة اللحظة الظافرة. وفي ليلتها، لم يجيء لها النوم إلا كابوساً، ولم يشخص لها الحلم إلا في صور الشرور والمخاوف، لم تنعم بالنعاس إلا عابراً، ولم تغفل عيناها إلا لتوقظها هواجس الأمس والغد، لماذا يستعصي علينا أن نتحمل ليلة واحدة وقد كنا ننتظر في جلد سنوات طوال؟ وقصدت جواباً، والليالي شحائح، ونادت بالدعاء تارة، وبالغناء تارة.. كانت أروقة قصرها قد استحالت خواءً، بعد أن انصرف العوالم، أحست العدم، دهمها خاطر الموت قبل أن تلقى بالرجل الشريد، المغترب، لعقود ثلاث، في بلاد الشام، بمنأى عن عصا الأمن، وتقلبات الأيام، راحت تفكر: هل علم بأمر العفو عنه؟ لابد أنه يشاطرها الشوق، ويبادلها شغفاً بشغف، لماذا يبدو كل شيء صامتاً؟ لماذا لا تنهض فترقص؟ لماذا لا تدع النوم فتنشد؟ لماذا السكون في مقام الابتهاج؟ لماذا نلتزم الحذر إذن إلا أن نكون طبعنا عليه؟ ثم هل فرطت فيما لا ينبغي لها تفريط فيه؟ أيستحق الرجل ثمناً كالذي وفته؟ أليس تكوينه

الهزيل يزري به؟ أليس فراره الذليل يتعارض مع مسماه؟ من أين لها بطائر رخ يحمله من منفاه إلى قصر الحلمية؟ أو يحملها من قصر الحلمية إليه؟ دأبت على أن تكتم انفعلاتها حتى صاحت صيحة منفلتة، لابد أن أصداءها قد ترامت في أنحية القاهرة الخديوية. وقفت في شرفة القصر، لا تدري من أين تجيئها الضربة وقد أنهكتها صروف الحدثان، تطلعت إلى همسات المطر بقلب ورع، نادت السماء بلا مجيب.. قصدت إلى نافورة الماء، المتوسطة الطابق السفلي للقصر، هبطت الدرج، على عجل، أنشأت تتمثل مشهد الاجتماع إلى عزيز..
ومع تجلي أولى إرهاصات الفجر، كانت العوالم الثمانية، حاضرات في قصرها، فقالت حليمة :
- فيم تفكرين؟
وقالت :
- يخيل لي، بالأمس، أني رأيت عباساً على ظهر حصان، ثم سعيداً يأكل المكرونة، بديناً كبرميل، وإسماعيل يلعب النرد، أعني أني رأيت أطيافهم جميعاً، عند النافورة، وأسفت لحالهم، ثم زاد أسفي لما تخايل لي محمد علي تائهاً لدى الصحن، لا يلوي على شيء!
وقالت حليمة، مستقرة الوجدان :
- فيم الأسف على الماضي؟ وكم من زعامات سادت، ثم بادت! إن للمعذبين حق أن نرثى لهم وعليهم قبل السادة!
وقالت كوثر :
- وأين عزيز، يا ترى، من كل هذا؟
وقالت :

- كان هناك بينهم، لقد طرب لإنشادي، ولو أنه أبدى بعض التحرج لدى رؤية عباس، الذي نحى باللائمة عليه لتقصيره في حمايته، وقال إن الملوك - مع أن منهم من مات بالسل، ومن عزل بالقهر، ومن احتجب للخرف - يتهكمون من اختياره لعزيز كبيراً للأغاوات مع حقيقة نحالته وضعفه، البادية للعيان!.. والغريب أنني بين أولاء الملوك لم أرتجف ولم أجزع!
وقالت حليمة:
- هل أكثرت من شراب نبيذ ميدوك بالأمس؟ أم لعلها أعراض الكبر؟
وأبدت استياءها من استهانة الأخرى بها، فانزوت حليمة على كرسيها وكانت لا تزال ساكنة مورد رزقها، إذ لم يزل لثرائها القديم الفاحش أثر في حاضرها وحاضر فرقتها، وقالت كوثر :
- وتوفيق؟ لابد أنه تشخص في صورة قبيحة لو صح نسبة هذه الخيالات إلى مصدر مطلع، مبارك!
وقالت ساكنة:
- كلا! كان مبتسماً على الدوام!
وقالت حليمة وهي ترقب الأثر الخاطف لظلال الطيور المحلقة في حوائط القصر:
- كيف يستقيم هذا؟
وقالت كأنها تبرر الدفاع عن خيالاتها جملة، بأن تبحث في الواقع عما يوطد زعمها في توفيق :
- ألا يكفي توفيق إلغاؤه السخرة، ثم إصلاح المساجد والأوقاف الخيرية؟ ثم أن تؤاطؤه مع الإنجليز مبعثه حقيقة أن لا حل عملي آخر أمامه !

وقالت كوثر :
- وألمظ وعبده الحمولي؟ لابد أنهما تجسدا في صورة شيطانين، ولدورهما في تكدير صفو حيواتنا وقع عليهما الجزاء العسير.
وقالت متجاهلة حديث الأخيرة :
- إنها رؤية لا أضغاث أحلام، بعثت بها السماوات إليَّ قبيل انتقالي إلى ديارها الرحبة!
وقالت حليمة :
- ولسوف تخرس الدفوف، ثم تقطع أوصال الأعواد حين يجيء هاذيك اليوم البعيد! ومن ذا يعين الفقراء والحائجين من بعدئذٍ؟ أو يخص الدخول بإنشاء المدارس وتطبيب ذوي السقام !
وقالت كوثر في سمر :
- أو يجود على العوالم من صنوف النعمة بيديه البيضاوتين؟!
وأغرب العوالم في الضحك، إلا ساكنة، التي كانت لا تزال مستغرقة في منامها، متأثرة بما حوى من أعاجيب اللقيا والاجتماع. وغنت لهم، فشجاهم الغناء وأطربهم، حتى لم يعدن يجبنها في أحيان الجواب، لفرط انشغالهم بالنغم المرسل، والأداء المرهف. اختبأت ساكنة وراء النغمات، وتورات نفسها عن نفسها. قالت لهم :
- إن العالم موسيقى ضخمة هي أكثر تعقيداً من حياة الفرد الواحد: نغمات اقتصادية، وأخرى اجتماعية وسياسية، وثالثة فلسفية وروحية، ونشاز العالم هو أن يكون الجوع بجانب التخمة، والنعيم إلى جانب الشقاء، ثم الاستعمار، والرق،

والحرب، والدسائس الدولية، والمؤامرات الأممية، تماماً مثلما يطغى صوت الرق على صوت العود أو القانون!
ثم ترامى إلى الأسماع صوت ما أشبهه بالصياح العارم يقول :
- إن الأغا قد عاد!
واهتز كيانها، وتجسد اضطراب باطنها في انقطاع الغناء، قالت حليمة :
- لسنا نستبق الحوادث! فما أكثر الأغاوات في بلادنا!
لم يعد للانتظار معنى، تركت مجلس أنسهم المستحيل إلى صمت، حدقت وتحققت، من شرفتها العالية، فلم تتبين هيئة العائد على وجه اليقين. من أين يأتي مصدر الصوت على التحديد؟ من مقهى الجمالية؟ أم من وكالة العطارين؟ أم من غياهب ماضيها؟ كانت مثقلة الخطى، كأنها تشد الرحال، إلى نفسها التي باتت كالأطلال، برحت القصر ذا الطابقين، وقصدت إلى جامع الأزهر، على هدى ضياء الفجر، وحدها، ها هو ذا الصوت يعلو فيشتد، كأنما يصدر من خارج أسوار الزمان:
- إن الأغا قد عاد!
ظلت تتفقد الأزقة، والحارات، راحت تزور الأندية والحوانيت. انعطفت ذات اليمين، عرجت إلى اليسار، عادت إلى الموضع الذي منه بدأ سعيها، هل أصابها من الجنون طرف؟ أم أنه الخرف الذي يلم بالعجائز في أخريات أطوارهن؟ هل تبحث عن أصداء متوهمة؟ أم أن الطرق غدت دهليزية كمتاهة؟ كانت حليمة قد اقتفت أثرها، فلما بلغت منتهى مسيرتها، سألتها:
- هل تسمعين الصوت مثلما أسمعه؟

وأجابت الأخرى بالإقرار، وقالت في نبرة أمومة:
- فلنعد إلى قصر الحلمية، فإذا حضر الرجل وجدنا!
بدا جواباً بدهياً، ولكن أين ذاك العقل الذي يمحص ويفكر، في غمرة الاضطراب؟ بدت البنايات، من حولهما، عتيقة عتقاً عجيباً، والأنفاس لم تعد تطمئنها، ولا الخلق الكثير الذين ملأوا الجنبات، وأحاطوها، وطوقوا مسيرتها. وقالت لحليمة مأخوذة اللب:
- كان يخشى إن عاد قبل الآن أن يطاردوه، فيطردوه!
اقتربت من القصر، عائدة، خائبة، استقبلتها كوثر، لدى الباب الخشبي، متهللة، مستبشرة، رأت ساكنة عزيزاً في بسمتها المنفرجة، إنها لأجمل البسمات لو أنها طبعت على وجه شائه، ومع أنها صدرت عن فم خرب! هرعت إلى الداخل، جازت البوابة الخشبية، أبصرت عزيزاً، كان شيخاً، فارعاً كالدوح، هزيلاً، كما كان دائماً..حارت الأوصاف دون أن تجسد المحسوس، عقمت المعاني أن ترجح أو أن تجزم، قصرت الدلالات عن أن تصيب أوجه الغايات.. أي لحظة تلك وأي ساعة؟!
تلاقى اثناهما لدى صحن النافورة، بكى عزيز، وانتحبت العوالم، تعانقا.. ثم وقفت إزاءه، ساكنة، ساكتة، ليس بها حراك، استعاد الرجل في خاطره وقائع ليلة هربه، ما انصرم من أيام ضيعته في الفيافي، وسنوات غربته وتغربه، ثم رسائل جمة لم تفتأ تنقطع بينهما، قال وهو يتأمل فعل الزمان فيها:
- فلتنشدي لنا عن الشوق.. إنشاداً يذهب عنا الحسرات!
قالت وهي تمسك دموعها:
- أأنشد الشوق كله أم من الشوق اختصر؟

**النهاية**

# مراجع


1- فيض الخاطر - أحمد أمين.
2- الموسيقى الشرقية والغناء العربي - قسطندي رزق.
3- فنانو الإسكندرية - فكري بطرس.
4- الطرب عند العرب - عبد الكريم العلاف.
5- تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا - إلياس الأيوبي.
6- محمد علي: سيرته وأعماله وآثاره - إلياس الأيوبي.
7- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار - عبد الرحمن بن حسن الجبرتي.
8- الخطط التوفيقية الجديدة - علي باشا مبارك.
9- مجلة التراث العلمي العربي - العدد 39
10- حديث ابن هشام - محمد المويلحي.
11- طائفة المغاني في مصر في العصر المملوكي - مرفت عثمان.
12- مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها - العدد الساس والعشرون.
13- ديوان عائشة التيمورية.
14- علاقة عباس حلمي الأول بشيوخ القبائل - مجلة الدارة - العدد الثالث.
15- رسائل من مصر - ليدي دوف جوردون